دار الفكر
دمشق - سورية
دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

جودت سعيد

مجالس بئر عجم

مفهوم التغيير

الأستاذ جودت سعيد

- مفكر إسلامي بارز، مواكب للحركة الفكرية المعاصرة، وله تجربة عميقة في قراءة الواقع الإسلامي. ولد في قرية بئر عجم من أعمال محافظة القنيطرة في المنطقة المحررة من الجولان في سورية عام ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م.
- درس في الأزهر الشريف المرحلة الثانوية، وتخرج من كلية اللغة العربية في جامعته.
- متفرغ للعمل الفكري، وقد قدم العديد من الكتب والدراسات والمحاضرات منذ أواخر الخمسينات ولا يزال.
- يهتم في فكره بترشيد الوعي الإسلامي، ونبذ فكرة العنف، ومفهوم التغيير، والبحث في آيات الآفاق والأنفس، والحوار والتفاهم والتعايش، إضافة إلى إشكالات الفكر العربي والإسلامي الحديث.
- بدأ أعماله الفكرية أوائل الستينات بكتيب عنوانه: لم هذا الرعب كله من الإسلام؟ ثم أتبعه بكتبه الأخرى: مذهب ابن آدم الأول (١٩٦٦م)، الإنسان كلاً وعدلاً (١٩٦٩م) حتى يغيروا ما بأنفسهم (١٩٧٢م)، فقدان التوازن الاجتماعي (١٩٧٨م)، العمل قدرة وإرادة (١٩٨٠م)، اقرأ وربك الأكرم (١٩٨٨م).
- أسهم في ندوات كثيرة منها ندوة بيروت التي نشرت في كتاب بعنوان (الحوار سبيل التعايش) (١٩٩٤م).
- كتبت عنه دراسات نقدية عديدة يصدر آخرها في كتاب بعنوان (الهجرة إلى الإسلام).

بسم الله الرحمن الرحيم

مفهوم التغيير

Bi'r 'Ajam Seminars

CHANGE CONCEPT

Mafhūm al Taghyīr

by

Jawdat Sa'īd

مجالس بئر عجم

مفهوم التغيير

جودت سعيد

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي ١٠٢٨,٠١٣
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-197-3
الرقم الموضوعي: ٣٠١
الموضوع: مشكلات حضارة
العنوان: مفهوم التغيير (مجالس بئر عجم)
التأليف: جودت سعيد
الصف التصويري دار الفكر المعاصر
التنفيذ الطباعي: مطابع المستقبل-بيروت
عدد الصفحات: ٢٦٤ص
قياس الصفحة: ١٢×١٧ سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر المعاصر
ساقية الجنزير، خلف الكارلتون
لبنان-بيروت-ص-ب(١٣٦٠٦٤)
تلفاكس ٨٦٠٧٣٩

Http://www.fikr.com
e-mail info@fikr.com

إعـــادة
١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م
ط١ / ١٩٩٥م

المحتوى

الموضوع	الصفحة
كلمة الناشر	٩
المقدمة	١٥
المجلس الأول : تأملات في اللغة	٧٣
حرية التعبير عن الرأي	٧٥
مفهوم الدين	٧٧
الحسن والقبح	٧٩
علاقة الحق بالنطق	٨٠
نشأة اللغة	٨١
حفظ التجارب بواسطة اللغة	٨٢
مراحل تطور اللغة	٨٤
تحليل عملية النطق	٨٥
مراحل تسمية الأشياء	٨٦
أهمية القراءة والكتابة	٨٩
اللغة والواقع	٩١
الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية	٩٤
معرفة العواقب تقربنا من الحقيقة	٩٤
الأرضية المعرفية التي كتب على أساسها التراث	٩٨

المجلس الثاني : سياسة الإسلام ١٠٥

قراءة التاريخ ١٠٧
ذهنية التقليد ١٠٩
النص والواقع ١١٠
وظيفة الأنبياء ١١١
التحرر من الخوف والنفاق والغدر ١١٢
قول الحق وتحريم الغدر ١١٤
خطة النبوة لبناء الثقة والرشد ١١٦
الصدق والأمانة والثبات ، بدل العنف والغدر والكذب ١١٨
بناء مجتمع الرشد والثقة ١٢١
ممارسة الحرية وفرض القانون ١٢٢
كسر السيف والتخلص من السلاح ١٢٤
تحرير الإنسان ١٢٧
سياسة الصدق ١٣٠
نظام العمل بمنهج اللاعنف ١٣٣
الأمة الراشدة تفرز الخليفة الراشد ١٣٤
قوة الشعوب وضعف الجيوش والحكومات ١٣٦
منهج الإسلام في مقاومة التسلط الخارجي ١٤٠
التناقض الرئيسي والتناقض الثانوي ١٤١
نبذ العنف بقناعة ١٤٣
نبذ العنف وقبول تحدي قول الحق ١٤٥
المعرفة والسلطة ١٤٨
شراء الأسلحة كشراء الأصنام ١٥٠
سؤالان حول اللاعنف ١٥١

المجلس الثالث ١٥٥
الرشد شريعة الله والعنف شريعة الطاغوت
الإيمان بالعنف يضطرنا لممارسة التقية والنفاق ١٥٨
تأملات في سورة الممتحنة ١٦١
صلح الحديبية ١٦٢
فتح مكة ١٦٥
النهي عن موالاة الأعداء ١٦٨
ممارسة الجهاد في الإسلام ١٧٠
درء الفتنة ١٧٣
شريعة الله وشريعة الطاغوت ١٧٦
قتال الكافر ليس لأجل كفره ١٧٧
بناء الثقة سبيل إلى النصر ١٨٠
ضياع الأمانة عند المسلمين ١٨٢
من فقد الأمانة فقد إنسانيته ١٨٥
المساواة أمام القانون ١٨٦
منع العنف ونصرة المستضعفين ١٨٨
المجلس الرابع : القانون ١٩٣
مشروعية التقية ١٩٥
قتل الزعماء ليس حلاً لمشكلاتنا ١٩٩
العنف لا يخدم الإسلام ٢٠٠
فلسفة اللاعنف في قصة ابني آدم ٢٠١
القانون سمة الإنسانية ٢٠٤
تأسيس القانون في المجتمع ٢٠٥
نشر العلم ضمان لسيادة الحق ٢١٠

العدل والمساواة في الإسلام
أعمال الرسول سنن لا خوارق
السبق الإسلامي في بناء الرشد
منهج التغيير في الإسلام
القراءة مفتاح التغيير
الحرية ونبذ العنف
معنى عبادة الله
تنصيب الخليفة
الغي بعد الرشد
المجلس الخامس : الإسلام ومفهوم التغيير
التغيير
التغيير وقول الحق
الثورة الإيرانية والتغيير
قتال المرتدين أيام أبي بكر
تغيير الولاء
معنى التعرف على الله
العصبية العقائدية
نظام العلاقات في المجتمع الإسلامي
التعددية في ظل الإسلام
تطور المفاهيم الإيمانية
هدف الجهاد في الإسلام
دور الكنيسة في ظهور الإلحاد
خصوصية التعامل مع عرب الجزيرة العربية
خطر الجهل

كلمة الناشر

بسم الله ، له الحمد ، وهو المستعان

إذا كان لمقدمتي هذه أن تشكل مدخلاً يفضي بالقارئ إلى رحاب مجالس جودت سعيد في بئر عجم ، فإنني أتوخى لهذا المدخل أن يكون قصيراً ، صامتاً ، ما أمكن : يترك للقارئ أن يكوّن لنفسه بنفسه صورة عن العالَم الفكري لجودت سعيد ، دون إيحاءات ترمي بظلالها أو تصبغ بألوانها هذه الصورة .

ذلك أني شديد الإيمان بالقراءة مفتاحاً للمعرفة ، شديد الثقة بعقل القارئ ووعيه ، شديد الإنكار لكل أشكال الوصاية على فكره من نوع : اقرأ ، ولا تقرأ ، شديد الرفض لكل أنواع الحجر الفكري ، مهما تكن دوافعها نبيلة .

لا أتجاهل احتمالات أن يكون المقروء غثاءً تافهاً ، أو وهماً مضلّلاً ، أو فكراً ميتاً ، كما لا أتجاهل احتمال أن يسيء القارئ فهم ما يقرأ .. لكنني على يقين من أن القراءة المستمرة قادرة على أن تصحح أخطاءها ، وتقوّم اعوجاجها ، وتنفي خَبَثَها .

ومهما يكن الاتجاه الفكري لقارئ جودت سعيد ، فإنه يجد نفسه أمام مفكر من نوع جديد ؛ يحلق بعيداً عن السرب ، ويعزف على وتر غريب ، ويشدو بلحن نشاز ، ثم هو لا يبالي أهتز القوم طرباً لألحانه ، أم أعرضوا انزعاجاً من شدوه ؟!

إن شدوه أقرب ما يكون إلى صيحة نذير ، يطلقها من يرى إنساناً يقف على شفا جرفٍ هارٍ ، يوشك أن يتردى فيه ، فهو يحذره من السقوط .. أو حُرقة ملتاعٍ يرى وحيده يتلوّى من شدة الألم ، لم تنفع معه عقاقير الأطباء ، فهو يلوب بحثاً له عن علاج .. لكنه لا يلزم أحداً بالإذعان لصيحته ، ولا يكره أحداً على اتباع منهجه ، ولا يجبر مريضه على تجرع دوائه ، إنما عليه البلاغ ، أمانةً يشعر بالراحة كلما أداها ، ويحس بالسعادة كلما كان بلاغه أكثر بياناً ، وأنصع حجة ، فهو لذلك يعسُّ أفكار العالَم ، ويقلب وجهه في الآفاق ، ويغوص في الأنفس إلى الأعماق ، كي يقدم للناس بلاغه المبين ، متناغماً بكل اتساق مع آيات الكتاب المبين .

أراني بدأت برسم الصورة التي كنت حريصاً على أن أتركها للقارئ يرسمها بنفسه ، فلأدَعْ له أن يكمل صورته كما يراها هو عن : داعية نبذ العنف ، ونقد الذات ، وقبول الآخر ، والتحاور معه بالحجة ، وبالبلاغ المبين ، والتشبث بالحق ، وتحمل مسؤوليته ، وإشاعة المحبة ، ورصّ الصفوف ، والثقة بالإنسان ؛ الذي يؤكد تاريخه الطويل ، جهادَه للتحرر من اتهام الملائكة له بالفساد وسفك الدماء ، ولتحقيق ما علمه الله فيه ، بإقباله على العلم ، وجنوحه إلى السلم ، وإرسائه قواعد العدل ، والتزامه كلمة التقوى .

أما هذه المجالس ، فهي دروس عامة ، ألقاها المفكر الإسلامي على الناس ، في مسجد بئر عجم ، في محاولةٍ منه لتبسيط الأفكار ، وتوسيع قاعدتها ، وكسر احتكارها بين النُخَب ، وإتاحة الفرصة للحوار والمناقشة وفهم الآخر .

وأما بئر عجم ، فهي القرية النائية في أقصى الجنوب السوري ، في الجولان ، قرب القنيطرة ، التي رعت طفولة المفكر جودت سعيد ، وجذبته في خريف العمر ، ليأرز إليها ،

يستلهم من نقاء فطرتها ، وسحر طبيعتها ، وصفاء أجوائها ، ورحابة صدرها ، ما يعينه على تجاوز مشاق جهاده الفكري الطويل ، وعلى التأمل من أجل مزيد من العطاء ، لحل مشكلات الإنسان المعاصر ، وتخطيط مستقبله .

ويبقى لدار الفكر المعاصر ، شرف نشر هذه المجالس ، بعد جهود مضنية بذلها قسم الدراسات والبحوث في الدار ، لتحويلها من أسلوب المحاضرة المرتجلة ، إلى أسلوب الكتابة المبوَّبة .. وإنها لترى لزاماً عليها أن تتقدم بالشكر والامتنان لكل من أسهم في إخراج هذه المجالس :

- الأستاذ محمد نفيسة ، الذي أعاد تحريرها محافظاً ما أمكن على صيغ المؤلف ، وبوَّبها ، ووضع لها عناوينها الرئيسية والفرعية ، وخرَّج آياتها .

- وللأستاذ أسامة عمورة الذي خرَّج أحاديثها .

- وللإدارة التي راجعت ونقحت ووجهت .

- وللمؤلف الذي قرأ ووافق وقدم .

ـ وللقارئ الذي سيعكف على الدراسة والنقد والتحليل ، يتمثل وينقل من الأفكار ما يراه صحيحاً ، ويكشف ويناقش ما يراه خاطئاً ، فإنه هو المقصود بكل هذه الجهود ، وإنها منه وإليه .

إن هذه الحلقة هي الأولى من سلسلة (مجالس بير عجم) تضم خمسة منها ، وستتلوها الحلقات الأخرى تباعاً إن شاء الله .

نسأل الله تعالى أن تكون عوناً للمسلمين على تغيير ما بأنفسهم من تصورات خاطئة ، وأفكار ميتة ، حتى يغير الله تعالى ما حاق بهم من ذلِّ التخلف ، وتداعي الأمم .

النَّاشر

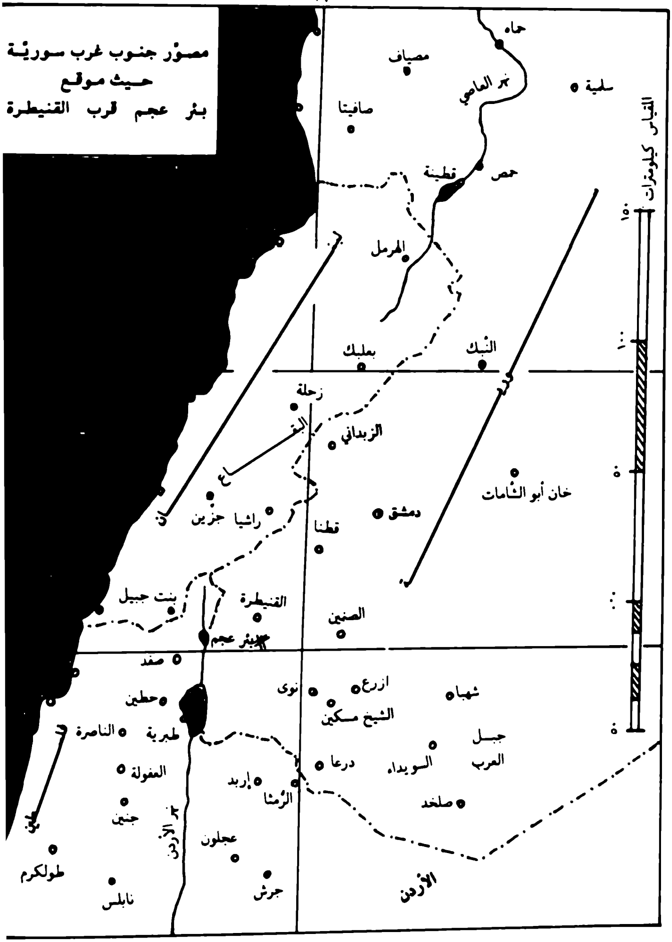
مصوّر جنوب غرب سورية
حيث موقع
بئر عجم قرب القنيطرة
حماه
مصياف
نهر العاصي
سلمية
صافيتا
حمص
قطينة
الهرمل
بعلبك
النبك
زحلة
الزبداني
خان أبو الشامات
راشيا
جزين
دمشق
قطنا
بنت جبيل
القنيطرة
الصنمين
بئر عجم
صفد
نوى
ازرع
شهبا
حطين
الشيخ مسكين
الناصرة
طبرية
جبل
العرب
العفولة
درعا
السويداء
إربد
الرمثا
صلخد
جنين
نهر الأردن
عجلون
طولكرم
نابلس
جرش
الأردن
القياس كيلومترات

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى والآمرين بالقسط من الناس . وبعد : فإن رأس المال الحقيقي للدعوة إلى شيء جديد ؛ هو سوء الأوضاع في العالم الإسلامي ، أو سوء العلاقة بين الشمال والجنوب ؛ بين المستكبرين في الأرض والمستضعفين فيها ، وسوء العلاقة بين المستضعفين أنفسهم في محور الجنوب .

والدليل على هذه العلاقات السيئة ؛ هو تلك الحروب الاستعمارية الاستكبارية التي يشنها الشمال على الجنوب ، والحروب العشائرية بين أهل الجنوب .

لقد بدأ الشعور بالاشمئزاز من هذا الوضع ، حتى وإن لم يظهر البديل بوضوح ؛ وهذا الشعور يشكل رأس مال مبارك وكبير .

إن إحساس الناس بسوء الأوضاع العالمية والمحلية ؛ يعد مخاضاً سيولد من ورائه نظام عالمي جديد ، وحينما نقول : نظام عالمي جديد ؛ فهذا لا يعني أنه سيخلق فجأة ، ولكن الظروف الحالية ، والتطور البشري ؛ أوصل العالم إلى إدراك أن النظام القديم لم يعد محتملاً ، وهذا لا يعني أن الحل البديل قد صار جاهزاً أو موجوداً .

إن أرضية الحل هي الشعور بالقلق وعدم الرضا ، وهذا ما نراه ينتشر بين عامة الناس ، وهو المناخ الذي يساعد على ظهور حلولٍ بديلة وجديدة ، ولا يكفي مجرد الشعور بسوء الأوضاع ، إذ لا بد أن يترافق ذلك مع الشعور بإمكانية صنع البديل الأفضل ، وبدون هذا لا يمكن للأوضاع السيئة وحدها أن تكون سبباً لوجود سعي جاد لبناء البديل .

التقيت في دار الفكر بالقاضي إسماعيل الأكوع اليمني ، حين كانت الحرب في اليمن على أشدها ؛ فسلّمت عليه ، وقلت له : أعزيك وأهنئك ، فقال : أما التعزية فقد فهمتها ، ولكن كيف أفهم التهنئة ؟ ، قلت له : أهنئك لأنكم يا أهل اليمن

بعملكم هذا سترفعون وتزيدون إيمان الناس بعدم جدوى العنف لحل المشكلات ، وستثبتون أن هناك بديلاً أرحم وأقرب إلى رضا الله ورسوله والمؤمنين والعقلاء في العالم ، بديلاً غير القتل الذي يجر القتل ، وغير الحرب التي تدمر الطرفين .

إن حرب الخليج الأولى كانت تسمى : الحرب المجنونة ، ولكن الحرب الخليجية الثانية فاقتها في الجنون والقرف ، فلقد زلزل العالم بها ، وصاحبها تفكك الاتحاد السوفييتي ، ولقد أرادوا منها لملمة الشمل خشية أن يستيقظ العالم ، وبغية تأخير ميلاد نظام جديد للعالم .

إنهم يتحدثون عن نظام عالمي جديد ، ولكن كلامهم ليس فيه أي جديد ، وما يطلقون عليه اسم النظام الجديد ، هو الأساليب الجديدة التي سيحافظون بها على القديم ، لمسايرة الظروف الراهنة التي **لا يمكن فيها حلُّ المشكلات بالعنف** ، هذا هو الجديد في العالم ، ولكن كيف نبقي الإيمان بالقديم وهو إمكان حل المشكلات بالعنف ، كيف سنجعل العالم ثابتاً على الإيمان بأن المشكلات يمكن حلها بالعنف ، بالرغم من أن أوان

العنف قد فات ، وبطلت كل أساليب الحلول التي تقوم على العنف ، كيف سنقوم بعملية سحرية يظل فيها الإيمان بالقديم قائماً وفعالاً ؛ فهذا هو الجديد في العالم ، وهذا هو الوهم الذي يسعى المستكبر للحفاظ عليه .

كانت الأخبار قديماً تتأخر في الوصول إلى الناس عن زمان حدوثها ، وذلك لسوء المواصلات وبطئها ، وحين سقطت القسطنطينية في القرن الخامس عشر عام ١٤٥٣ ؛ استغرق وصول الخبر إلى ڤينيسيا نحو شهر ، وإلى روما حوالي شهرين ، واستغرق ثلاثة أشهر إلى أن وصل إلى سائر أنحاء أوربا .

حدث هذا بالنسبة لخبر عظيم هو سقوط العاصمة البيزنطية ، ولكن كم يستغرق انتشار خبر سقوط فكرة من الأفكار ، كسقوط فكرة إمكان حل المشكلات بالعنف .

إن خبر سقوط القنبلة النووية على اليابان وصل إلى كل أرجاء العالم بسرعة ، ولكن النتائج التي يمكن أن تحدث في العالم نتيجة هذا الحدث لم تصل بعد .

لقد مضى نصف قرن على هذا الحدث ، ولم يستطع أهل الجنوب فهم السبب الذي أدى إلى توقف الحرب في الشمال ، لقد سقط من سقط بدون عنف ، ونجح من نجح بدون عنف ، والآن تتحد أوربة بدون عنف ، ولكن الأفكار التي جلبت هذه الأحداث الجديدة في العالم ؛ لم يصل خبرها إلينا ـ في محور الجنوب ـ بعد .

إن قصة تسخير سليمان عليه السلام للجن ؛ ينظر إليها كخارقة ، ولكن يمكن الاستفادة منها في هذا الموضوع ، فبالرغم من وفاة سليمان ظل الجن يخدمونه ، لعدم قدرتهم على الملاحظة الدقيقة ، ونحن نسخر طاقاتنا ونجهز عدة العنف بالرغم من أن العنف قد مات في العالم ، وفي الحديث الشريف أن الموت يذبح يوم القيامة فلا يبقى موت ، فهل نستطيع أن نفهم أن العنف قد مات وذبح ولم يصل خبره إلينا بعد ؟! والنظام العالمي الجديد هو الزمن الذي سيستغرقه فهم هذا الحدث من قبل الناس في محور الجنوب .

إن النظام العالمي الجديد لم يأت بالفعل ، ولن يأتي

قريباً ، وسنظل في النظام العالمي القديم حتى نفهم الحدث الكبير الذي ذبح فيه العنف كأسلوب لحل المشكلات .

يقال : إن ذئباً دخل بستاناً فوقع في الفخ ، ثم دخل البستان ثعلب فرأى الذئب ، فجرى بينهما حوار ، كان الذئب متألماً خائفاً ، فسأل الذئبُ الثعلبَ قال : هل القيامة بعيدة ، فقال له الثعلب : القيامة بعيدة ولكن قيامتك ستكون حين يأتي صاحب البستان ، وعلى نهج هذا المثل أقول : إن النظام العالمي القديم ، واستغلال الشمال للجنوب ؛ سيبقى كما هو ، وسيتمتع الشمال بخيرات الجنوب إلى أن يفهم الجنوب التغير الذي حدث في العالم ، إلى أن يفهم أن العنف لم يعد يحل المشكلات ، وهذا سيأخذ وقتاً ، لأن الزمن الطويل الذي قضاه في العهد العتيق ، وعدم مشاركة الجنوب في صنع هذا الجديد ؛ يجعله غير قادر على إدراك هذا الحدث الكبير والجديد جداً على تاريخ البشرية .

إن المثقفين والحكماء في الجنوب لم يتمكنوا من فهم هذا الحدث ، وقد حاولتُ أن أشرح وأُفْهِمَ هذا الحدث الخطير الذي

حدث في العالم لأهالي قرية (بئر عجم) في الجولان ، وها أنا ذا أقدم في هذه المجالس المحاولات الصعبة التي حاولتها وعانيتها خلال سنة كاملة ، وهذا العمل أو هذه المحاولة أعدُّها تجربة بسيطة ، وربما تكون غير ناجحة ، ولكن لا بد من العمل في هذا السبيل ، وإن إيماني بجدواه ، وأنه السبيل الوحيد ، هو الذي جعلني أخوض هذه التجربة .

وأعتقد أن هذه التجربة يشوبها أمران :

الأول : ضعف حجَّتي وتبعثر الأدلة وعدم القدرة على لملمتها لإدراكها بشكل متكامل متجانس ، وهذا راجع إلي أنا .

والأمر الثاني : راجع إلى المناخ الفكري الذي يستبعد مثل هذه الرؤية ويستسخفها ، فكيف تتحدث عن حلٍّ سلميٍّ والنار نار العنف تكوي جباهنا وجنوبنا وظهورنا ؟! ما هذه المفارقة السخيفة التي تتحدث بها ؟! عليك أن تكف عن هذا الحديث السمج ، ما (مذهب ابن آدم الأول) ؟ ابن آدم الأعزل المستسلم ، كيف يحمي نفسه في عالم الذئاب وهو حمل .

اللهَ اللهَ ، كيف سأجعل الناس يرون ما أرى من أن النصر الآن - الآن بالذات - يكون بهذه المواجهة العزلاء : ﴿ آدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُم غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٥/٢٣] .

ولكن كيف سيقتل الأعزلُ المسلح ؟ لقد قتل داودُ الأعزلُ جالوتَ المسلحَ ، وهذا رمز في الواقع ، والتاريخ يعيد نفسه بشكل مختلف ، إن داود هو المسلم صانع الدروع ، وجالوت هو الأعزلْ الذي يقاتل بالعصا والحجر أمام الدارع ، كيف نفسر اللغز ؟ إن الموضوع يحتوي على إشكاليات كثيرة ، ولكي نبطل السحر علينا أن نؤمن به أولاً .

كان السحرة يكتبون الألغاز التي لا معنى لها ؛ ليوهموا الناس ويسحروهم ، ونحن الآن نكتب ونخطب لنسحر الناس ، ولقد نجحنا فعلاً في سحر الناس ، حتى استسلم مليارات من البشر للسحر ، ترى كيف نتعلم الآن فك السحر ؟ ما هو البخور ، وما هي التعويذة التي ينبغي أن نتلوها لنتحرر ؟ كيف سنبطل السحر المسيطر على النفوس ؟ هل قمت بعمل

الساحر أم قمت بفك السحر في هذه المحاولة والمقـاربـة والتجربـة التي أجريتهـا خـلال سنـة ، والتي سـأستمر عليهـا خـلال السنين القادمة إن شاء الله ؟!

إنها تجربة جديـدة انطلقت بهـا من القـاعـدة ، وعملت مع الناس العاديين الطيبين .

هل أستطيع أن أبسط الموضوعات وأجعلها قريبة من الفهم والوعي ؟ هل سأتمكن من الإقناع بما أنا مقتنع به ؟ .

الحق أقـول : ينبغي أن أعترف هنـا أنني كنت أوحي إليهم بـأنني غير قـادر على إقنـاعهم ، وهـذا لم يكن ليقربهم من الفهم والاقتناع وإنما يبعدهم عن ذلك ، وهذا من نقص الدربـة الـذي ينبغي أن أعترف بـه ، وهـذا ليس نقصـاً في قنـاعتي بـالفكرة ، ولكنني كنت مقتنعـاً بـأن الحجب كثيفـة أمـام هؤلاء ، وكنت أحسب لهذا حسابه ، وكأني أعذرهم مسبقاً إن لم يفهموا علي .

لم أكن كموسى عليه السلام الذي قال : ﴿ وَانْظُرْ إِلى إِلَهِـكَ الَّذِيْ ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّـهُ فِي الْيَمِّ نَسْفـاً ﴾

[طه : ٢٠/٩٧] ، ولم أكن كإبراهيم عليه السلام الـذي كان يقول : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَـا لَمْ يُنَزِّلْ بِـهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـانـاً فَـأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِـالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٦/٨١] ، ولم أذكر شعيبـاً عليـه السلام حين قال : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُـدْنَـا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْـدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْها ، وما يَكُونُ لَنـا أَنْ نَعُودَ فِيهَـا إِلاَّ أَنْ يَشـاءَ اللهُ رَبُّنا ، وَسِعَ رَبُّنَـا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَـا ، رَبَّنَـا افْتَحْ بَيْنَنـا وبَيْنَ قَـوْمِنَـا بِـالْحَـقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَـاتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧/٨٩] .

وحين أسوق هذه المواقف النبوية ؛ لا أقصد أن الحوار بيني وبين الآخرين هو حوار بين الكفر والإيمان بالله واليوم الآخر ، بـل أقصـد الحـوار بين المـؤمنين بـأن العنف لا يـزال يحـل المشكـلات ، وبين من يرى أن زمـان العنف قـد ولّى إلى غير رجعة .

فكرة العنف هـذه ، كانت مسيطرة في المجتمع الـذي كنت ألقي فيه هذه الدروس والخطب والحوارات ، وكنت أريد فقـط

أن أقلب الحجج والمفاهيم ، فكما انقلب ظن الناس وإيمانهم بدوران الشمس حول الأرض إلى العكس تماماً ، فظهر أننا نحن الذين ندور حولها ، وليست هي التي تدور حولنا ، فكذلك ينبغي أن نقلب أموراً كثيرة في حياتنا حتى نتمكن من إصلاح أوضاعنا المأساوية ، ولعل هذه النظرة إلى التغيير تبدأ في التوسع والانتشار ، وتنال القبول شيئاً فشيئاً .

قد يرى البعض أو الكثيرون في مثال اليمن الذي قلت عنه : إنه سيثبت أن العنف لم يعد يحل المشكلات ، قد يرى هؤلاء فيه نموذجاً يدل على أن العنف حلٌ أو سيحل المشكلات ، وهكذا نجد أحياناً أن الدليل قد انقلب ، فما نستشهد به للنقض ؛ قد يستشهد به آخرون للإثبات .

وعلى الذين يظنون أن الحل جاء من استخدام العنف ؛ عليهم أن يتأملوا جيداً في الحالة التي نعيش عليها من عهد الخلفاء الراشدين إلى الآن ، إننا نعيش في حالةٍ من العنف غير الرشيد ، والاستمرار على هذه الحالة لن يعيدنا إلى الرشد ، ولذلك لا بدَّ من تنظيف المنطلق والقاعدة ؛ وإلا فما بني على

الخراب فهو خراب ، ينبغي أن نزيل من أذهاننا فكرة توحيد العالم العربي والإسلامي بالقوة ، وما دام هذا الهاجس موجوداً أو معوّلاً عليه في نفوسنا ؛ فإن خصومنا وأعداءنا الذين يفرحون بتفرقنا سيظلون يشعرون أنهم على أرض صلبة تُمكِّنهم من الاحتفاظ بتفرقنا والتحريش بيننا ، وإغراء بعضنا ببعض ، والتغاضي عن هذه النزعة ثم مواجهة أصحابها بقوة وشدة . كل ذلك موجود ولا بد من تنظيف المناخ أولاً ، وإلا فسيظل منبتاً للشرور ، وسراباً قابلاً لأن يخدع الناس .

وأودُّ في هذه المقدمة أن أسلط شيئاً من الضوء على فكرتين :

الفكرة الأولى : التوبة أو النقد الذاتي

كيف سأدخل إلى هذا الموضوع الجلي الخفي ؟ لعل المدخل الأنسب كما يبدو لي الآن مبدأ : « كل بني آدم خطّاء » ، ومبدأ إمكان أن نكون من الذين زُيّن لهم سوء عملهم فرأوه حسناً ، أو من ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : ١٨/١٠٤] ، فمن الممكن أن نكون

مخطئين عن جهالة أو عن عمد دون أن نشعر : ﴿ وَإذا قِيْلَ لَهُمْ : لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا : إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، ألاَ إنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢/١١-١٢] .

إن من السهل علينا أن نرى الآخرين خَطّائين ، وأن سعيهم قد ضلَّ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أو أنهم مفسدون في الأرض وهم يرون أنفسهم مصلحين ولا يشعرون .

كيف سأقلب هذه الفكرة من الآخر إلى الذات ؟ وإذا كان سهلاً علينا رؤية الفساد الذي يقع فيه الآخرون ؛ فهل يمكن أن نكشف ما نقع فيه نحن بالذات من الفساد ، أم لا قدرة لنا على ذلك ؟ هل نحن عاجزون أشدَّ العجز عن التفكير في هذا الموضوع تفكيراً جدّياً ؟ كيف نقلب الأمور ؟

إنني حين أجعل عنوان هذه الفكرة : (التوبة) ؛ فإن التوبة غير ممكنة إلا إذا تمكن الإنسان من رؤية خطئه .

ما بالي أثير هذا الموضوع الشائك ؟ ترى هل أنا كفء لهذا الموضوع الغامض الذي يقع فيه الاشتباه ؟ هل أزيد الأمر

غموضاً وتعقيداً من حيث أحاول كشف الغموض ، فأجعل من يقرؤه في حيرة أكثر ؟

لا بد من البحث ، لا بد من التتبع ، لا بد من تناول المواضيع المستبعدة ، علينا أن نبحث عن طريق التوبة ، وأن نبحث عن كشف الخلل .

إن استبعاد إمكان الوقوع في الخطأ من ذاتنا ، واستبعاد أن نكون من الذين زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً ، إن هذا الاستبعاد يجعلنا بعيدين عن طريق التوبة ، ويبعدنا عن كشف الخطأ والخلل . ومن هنا لا بد من الرجوع إلى القاعدة الجليلة ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣/١٦٥] .

إن تبرئة الذات واتهام الآخرين ليس طريقاً قرآنياً ، ولكن طريق القرآن هو أن ما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وطريق الرسول ﷺ هو : « فمن وجد خيراً فَلْيَحمدِ اللهَ ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » . إن عندنا استعداداً لأن نلوم كل أحد ما عدا أنفسنا ، بالرغم من أن الرسول ﷺ يقول لنا ألا نلوم إلا أنفسنا .

كيف نلوم أنفسنا ؟ كيف نتعرف على النفس اللّوامة ؟ كيف نتعرف على ﴿ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠/٢٣] ؟ لا بد من الالتجاء إلى الأنبياء وإلى الصالحين وإلى الصوفية وعلماء النفس ، والاستعانة بكل الخبراء للدخول إلى هذا المدخل الخطير الكبير ، ولكشف الخلل ، وكشف طريق التوبة ، وكشف الأوهام المعيقة ، وكشف طريق إبليس وطريق آدم .

طريق إبليس هي ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الأعراف : ١٦/٧] ، وطريق آدم هي ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ [الأعراف : ٢٣/٧] ، وظلم النفس وظلم الذات هو من الذات ، هذا هو الأسلوب القرآني ، ولكن كيف نعيد الحياة إليه ؟ إنني أناشد كل الخبراء أن يتأملوا هذا الموضوع . إن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ؟ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : ١٠٣/١٨-١٠٤] ، ربما يساعدني على هذا التوجه مالك بن نبي في إحيائه لمصطلح القابلية للاستعمار ، القابلية للانخداع ،

وهـذا مـا يـدل عليـه الحـوار الـذي دار بين إبليس وأتبــاعــه : ﴿ وَقَـالَ الشَّيْطَـانُ لَمَّـا قُضِيَ الأَمْرُ إنَّ اللهَ وَعَـدَكُمْ وَعْـدَ الْحَـقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَـا كَـانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَـانٍ إلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَـاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُـوا أَنْفُسَكُمْ ، مَـا أَنـا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إنِّي كَفَرْتُ بِمَـا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْـلُ ، إنَّ الظَّـالِمِينَ لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ١٤/٢٢] ، هـذا الحـوار ، وهــذا الاعتراف من إبليس ذو مغـزى عميـق ، وهــذا المغزى هو أن الإنســان لا يـذلُّ إلا برضـاه ، والآخرون لا قـدرة لهم ، ولا سلطان لهم عليه ؛ إن هو رفض أن يستجيب لهم .

إذن ، الإنسان يُستعمر برضاه ، ويَذل برضاه ، ولا قـدرة للأغيار عليـه ، إنـه الخليفـة مـالم يتنـازل ويقبل بمـا هو أقلّ ، يا إلهي !! يا ربِّ !! ماأعظم هذا التكريم !!

ينبغي أن يكشف هـذا الموضوع ، ينبغي أن يوضِّح هـذا القانون ، ترى لمن سيكون شرف بيانـه ، من سيحرر النـاس من الوهم ، من سيوضـح أنـه لا سلطـان لـلآخرين على الإنسـان إلا ما يمنحه هذا الإنسان هو بالذات للآخر ، ولا يكلفه الاحتفـاظ

بهذا السلطان إلا أن يقول بملء فمه : « لا » ، لا أستجيب لك ، إنها فلسفة ، إنها عقيدة ، إنها تَصَوُّرٌ لمكانة الإنسان ، لقدرة الإنسان ، لهذا المخلوق العجيب ، وبهذا وصفه الخالق نفسه : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/١٤] .

إنه خلق آخر ، كل المخلوقات مسخرة بطبيعتها وذاتها ما عدا الإنسان ، إنه خرج عن هذا وصار هو الْمُسَخِّر للمخلوقات : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٤٥/١٣] . لقد خرج من عالم المسخَّرات بفتح الخاء إلى عالم المسخِّرات بكسر الخاء ؛ إلا إذا تنازل بإرادته ، فإن فعل فلا يلومن إلا نفسه ، ما هذه الفلسفة العظيمة ؟ ما هذا التكريم الذي ليس مثله تكريم ؟

ومن رفض ونسي وغفل فإن عقوبات الزمن ستوقظه .

أنا لست بصدد البحث في هذا الموضوع ، وإنما بصدد

كشف الخطأ الذي وقعت وأقع فيه ، وصرت أتلمسه بقرون الاستشعار ، لأكشف خطئي وعمدي وكل ذلك عندي ، وقد ورد في الحديث : « اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطاياي وعمدي ، وكل ذلك عندي »[1] ، كيف نكشف الخطأ الخطأ ، والخطأ العمد ؟ كيف يمكننا أن نمر بهذه الحدود المتعرّجة ؟ كيف نحرر الإنسان ؟ كيف يصير لنا ببلال بن رباح العبدِ قدوة في الحرية ؟ ذلك العبد الذي احتفظ بالسلطان ولم يتنازل عنه للذي أمره أن يتنازل ، كيف نكشف النفس الأمّارة بالسوء ؟ وكيف نذبح الغرور ؟ أم كيف ننحر التعالي ؟ كيف نتخلص من الكبر الذي لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة منه ؟ كيف أنقذ ذاتي ؟ كيف أكشف عوراتي ؟ :

لسانَك لا تذكر به عورة امرئ　　　فكلّك عورات وللناس ألسن

كيف نواجه الحقيقة المرّة ؟ وكيف نحوّل المرارة إلى حلاوة ؟ كيف سيعلو من يعترف بأنه خطّاء (بصيغة المبالغة) ؟ .

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ، باب : قول النبي ﷺ : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخّرت » ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة ، باب : التعوذ من شر ما عمل ، رقم (٢٧١٩) .

يا ربّ إليك ألجأ ، وبك أستعين أن تعينني وتعيذني من شرّ نفسي ، ومن غواية نفسي ، ومن خداع نفسي ، ومن تزيين نفسي . اللهم نفسي اللهم نفسي ، أعني على إنقاذ نفسي وأنت الذي قلت : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [التحريم : ٦٦/٦] .

بعد قيامي بهذه التجربة لمدة عام أو أكثر ؛ صرت شيئاً فشيئاً أنتبه إلى أشياء جديدة ، ليس دفعة واحدة ولكن ببطء شديد ، وبخطىً ثابتة . كان الانطلاق من إدانة الذات شأن أبينا آدم ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ [الأعراف : ٧/٢٣] ، لا من تبرئة الذات شأن عدونا إبليس الشيطان الذي نزّه ذاته وافتخر بأصله المادي ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص : ٣٨/٧٦] ، وافتخر بمذهبه الذي ينطلق من تبرئة الذات واتهام الآخر ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الأعراف : ٧/١٦] .

إن الانطلاق من اتهام الذات انطلاق صحيح مهما كان شاقاً وصعباً ، ولكن الانطلاق من اتهام الآخر ليس شاقاً وصعباً فحسب ؛ بل هو مستحيل ، مستحيل أن يتحول الشيطان إلى صديق ، ولكن بإمكاننا أن نحصن أنفسنا منه فلا يكون له

علينا سلطـان : ﴿ إنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـانٌ ﴾ [الحجر : ١٥/٤٢] ، وعلينـا أن نحـذره فهـو يعرف نقـاط الضعف عنـد الإنسـان نقطـة نقطـة ، وهو يطمـع أن يغـوينـا خطـوة خطوة : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَـانِ ﴾ [البقرة : ٢/١٦٨] ، ﴿ يَاإِبْلِيْسُ مَـالَـكَ أَلاَّ تَكُونَ مِنَ السَّـاجِـدِينَ ، قَـالَ : لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ ... قَالَ : رَبِّ بِمَـا أَغْـوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْـوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، قَـالَ : هَـذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ، إِنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ١٥/٣٢-٤٢] .

كيف نرجع إلى الـذات إلى النفس التي بين جنبينـا لنتلمس هناك طريق الإصلاح ، إننـا لا نحسن الرصـد إذا لم نحـدد مركز الرصد (المكان الذي نرصد منه) ، قد أكون مخطئاً أو مصيبـاً ، كيف سأتأكد من الخطـأ والصواب ؟ وكيف أتجنب مـا يعرضني للخطأ ؟ وكيف سأعمل بالأحوط ؟ كيف سأعمل بطريق يبعد الخطأ ويضمن النجاح ؟ وهل هذا ممكن؟ .

كنت أسألهم في بعض الجلسات الحميـة بعـد الصلوات : هل حدث لكم أن ركبتم السيـارة التي ستقلكم من المحطـة إلى منـازلكم وأعمـــالكم ، ثم شعرتم فجـــأة أن الأمر التبس عليكم فلم تعـودوا تعرفون : هـل تحركت السيـارة التي تركبـونها ، أم أن السيـارة التي بجـوارهـا هي التي تحركت ؟ وكانـوا يقـولـون : نعم . إن الانطلاق من أمور مجرَّبة وممارسة يومياً ؛ يساعد على حلّ بعض المعضـــلات الكبيرة ، فقلت لهم : ثم كيف كنتم تكشفـــون الصواب ، وكيف كنتم تتأكدون من الأمر ؟ فـأجـابني بعضهم : أنظر إلى الأرض ، فبالنظر إليها أعرف إذا كنت أنا المتحرك أم الآخر ، وقـال آخر : أنظر إلى العمـود فـأعرف منـه من هـو المتحرك . ولكن مـاذا لـو كنـا في الفضـاء وليس من أرض أو عمود ، كيف نعرف الأمـور ؟!! هنـا يصير كل واحـد مركـز رصد .

ترى إلى أي شيء نلجأ لمعرفة الحق من الأفكار حين يشتبـه الأمر وتُظْلِمُ الحيـاة وتسـوء الأوضـاع ؟ لقـد علّمنـا القرآن أن ننظر إلى العواقب أو أن ننتظرها ، ويؤكد الله تعـالى لنـا هـذا

الأسلوب فيقول : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرّعد : ١٣/١٧] .

وعيسى عليه السلام يضع لأتباعه قاعدة يفرقون بها بين الأنبياء الصادقين والمتنبئين الكاذبين ، فيقول : « من ثمارهم تعرفونهم ، أيثمر الشوك عنباً ؟ أو العليق تيناً » [متى ٧ : ١٦] .

ولا يكفي أن ترى العواقب وتعرف أنك على الصواب وعلى الحق ، فهذا اليقينُ لا يعطيك حق التغيير بالعنف ، ولا يخوّل لك حق السخرية من الآخرين . المشكلة ليست في أن تكون شاعراً بأنك على الحق ، المشكلة هي : كيف ستحل المشكلات ؟ وكيف ستقوم بعملية التغيير للذات والآخر ؟

ومن القواعد الأساسية أن التغيير يبدأ من الذات المغيِّرة (التي تريد التغيير) ، وليس من الذات التي يراد تغييرها ، وتحديد المنطلقات والأوليّات والأولويات شيء مهم ، فالتغيير يبدأ من الذات ، من النفس : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى

يُغَيِّرُوا مَـا بِـأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرّعـد : ١٣/١١] ، التغيير النفسي من عندنا ، وحين نغير ما بأنفسنا فإن الجو سيتهيأ للتغيير . ويقينك بـأنـك على صوابٍ وأن الآخرين على خطـأ لا يكفي لعمليـة التغيير ، إذ لا بد من أن يحدث لك يقين آخر بأن هذا الخطأ لـه الحق في أن يعيش على خطئه ، وتغييره لا يكون إلا بتغييرٍ ذاتي من عنده ، وتغييرك لما بنفسك ، وإيمـانـك بحقـه في البقـاء على ما هو عليه ، هـذا اليقين يتقـدم ويفوق مجرد اليقين بـأنـك على حق والآخر على خطـأ ، وهكـذا ينبغي أن يرتقي الإنسـان إلى درجـة أعلى حتى يحقـق : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الـدِّينِ ﴾ . ينبغي أن نكرر هـذا المـوضـوع ، وأن نقلّب النظر فيـه من كل أطرافـه ، لنرى الجـانب الآخر الـذي غـالبـاً مـا نغفلـه ، و ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ليس من جانبك تجـاه الآخر فحسب ، بل من جـانب الآخر تجاهك أيضاً .

إن عملية التغيير معقدة ، فبينمـا تصوب نظرك نحو الآخر ؛ ينبغي ألاّ تنسى للحظة واحدة توجيـه نظرك نحو الـذات ، نحو نفسك التي بين جنبيك .

إنك لا تحل المشكلة إلا إذا أحببت الـذي يخـالفـك ، ولكن كيف يمكن هذا ؟ كيف يمكن أن نحب الخطأ والخطّـاء ؟ كيف نحب للآخر ما نحب لأنفسنا ؟ كيف نحلُّ هذه التنـاقضـات التي تظهر أو تبدو لنا وإن لم تكن تناقضات واقعية ؟

إن هذا بحاجة إلى الارتفاع إلى درجـة أعلى ، لنستطيع ضمّ الأمرين المتناقضين ظاهراً في قانونٍ أعلى .

لعل المثل يسـاعـدنـا على تقريب الموضوع ، والمثـل الـذي أضربه هنا هو أننا إذا رأينـا الإنسـان المريض مريضـاً جسـديـاً تأخـذنـا الشفقـة والرحمـة بـه ، وإن كنـا في الوقت نفسـه نكره المرض كرهـاً شـديـداً ، إن هـذا الفصل بين المريض والمرض أمر جوهري وجذري ومفيد جداً ، بهـذه النقلـة استطعنـا أن نفصل بين شيئين في مكان واحد : المرض والمريض ، انصبّت الكراهيـة على المرض وليس على المريض ، وأحسسنا بالشفقـة والرحمـة نحو المريض .

ربما يكون هذا الفصل في هذا المثال قريباً وممكنـاً ، ولكن ما أريد أن أصل إليه هو الانتقال بهذا المثل إلى مجـال آخر ، وهو

التمكن من الفصل بين الإنسان المريض خُلقياً أو المريض في فهمه وبين سوء الخلق وسوء الفهم . هل لنا قدرة على أن نفصل بين المريض بالفكرة الخاطئة وبين المرض ؟ فنحب المريض ونكره المرض ، وبذلك نرتقي إلى درجة أعلى يمكننا معها أن نحبَّ العدوّ وأن نحبَّ المصاب بالعدوى ، وإن كنا نكره العدوى . أرجو من القارئ أن ينتبه إلى أهمية هذه الفكرة ، فأنا أشعر بأنني اصطدت هذه الفكرة ، ولكن أرجو من الآخرين أن يعمقوها ويقعدوها ويوضحوها ، ويبنوا عليها بعد تجليتها وترسيخها .

لم يكن عيسى عليه السلام يطلب المستحيل حين قال : « أحبوا أعداءكم » [متىٰ ٥ : ٤٤] ، والقرآن لم يكن يقرر مستحيلاً حين قال : ﴿ هَا أَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ .. ﴾ [آل عمران : ٣/١١٩] .

لقد دلّنا الله على كيفية تحويل العدو إلى وليٍّ حميم ، تحويله يكون بالإحسان إليه كما نُحسن لأحبابنا .

متى ندخل إلى أعماق النفس للتعرف إلى طبيعتها والتعامل معها وتغييرها وتحويلها ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦/٨٣] . إن للصوفية مواقف في هذا المجال ، فيها خصوبة وليس فيها شطحات ، ولو أن دارساً تعمق في دراسة هذه المواضيع عند علماء النفس والسلوك لخرج بتوضيحات مهمة لهذه الأمور ، وإني متأكد من أن العلم سيتقدم في هذا المجال ، كما تقدم في مجال تطبيب الأبدان بمعرفة قوانين صلاحها وفسادها ، وسيشفي الناس من أمراض النفس والْخُلق بكشف قوانين صلاحها وفسادها .

ما خدعنا القرآن ولا غشنا حين قال لنا : ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصّلت : ٣٤/٤١] ، قد يكون هذا صعباً ولكن تذليله ممكن ، وقد أردف البيان الإلهي هذه الموعظة بالإشارة إلى الصعوبة فقال : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصّلت : ٣٥/٤١] بل ﴿ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥/٢] .

لا بدَّ من العيش في أجواء هـذه البحوث ، لقـد فَجَّر علمـاء الفيزيـاء الـذرة فحصلـوا على الطـاقـة من مصـدر لا ينضب ، وكذلك علماء النفس عندما يتغلغلون إلى أعماق السنن والقوانين التي تحكم النفس ؛ فـإنهم سيفتحـون البـاب إلى مـا علم الله في الإنسان من الخروج من عهد الفساد في الأرض وسفك الدماء .

إذا كان عيسى عليـه السـلام يقـول لحـوارييـه : « أحبُّـوا أعداءكم » فإن الله تعالى يقول لأصحاب محمـد ﷺ : ﴿ هَـا أَنْتُمْ أُولاء تُحِبُّـونَهُمْ ﴾ [آل عمران : ٣/١١٩] ، إنـه تعـالى لم يطـالبهم بالمحبة وإنما أخبر عن حالهم إخباراً عن شيء محقق ، وإذا حققنـا ذلـك فسيتحقـق لنـا وعـد الله الـذي لا يخلف الميعـاد . وهـذا الموضـوع يشبـه مـا قـالـه جـلال الـدين الرومي : إذا أردت أن تعرف الفرق بين محمـد وموسى ؛ اقرأ قولـه تعـالى لمحمـد : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : ٩٤/١] ، وقولـه تعـالى على لسـان موسى : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طه : ٢٠/٢٥] وكذلك قول عيسى عليه السلام : « أحبوا أعداءكم » .

ورسـول الله ﷺ حين قـال : « إنَّ الرِّفـق لم يكن في شيء

إلاّ زانه ، ولا نُزع من شيء إلاّ شانه ، ويعطي الله على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على سواه »[1] ، كان عليه الصلاة والسلام يقرر قاعدة للإنسانية ، ويضع قانوناً لتغيير النفوس من أعمق أعماقها ، ومن مثل هذه النظرة أيضاً جاء قوله ﷺ : « وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عِزّاً »[2] ، إن هذا القول شبيه بـ « أحبّوا أعداءكم » . الناس يرون في ظاهر الأمر أن هذا الموقف يغري الآخر على الفساد وليس على الصلاح . إن النظرة العجلى تبصر الموضوع على هذا النحو ، ولطالما خدعت الظواهر الناس عن الحقائق في تاريخهم الطويل ، حين كانوا يظنّون أن الشمس تدور حولهم لا أنهم هم الذين يدورون حولها ، إن كشف هذه الأمور يحتاج إلى نظرة غير عجلى وغير سطحية ، وكذلك الآيات والأحاديث ، وأقوال الأنبياء

---

(١) أخرجه مسلم في البرّ والصّلة ، باب : فضل الرّفق ، رقم (٢٥٩٢ ، ٢٥٩٤) ، وأخرجه أبو داود بدون الجملة الأخيرة ، في الجهاد ، باب : ما جاء في الهجرة وسكنى البدو ، رقم (٢٤٧٧) .

(٢) أخرجه مسلم في البرّ والصّلة ، باب استحباب العفو والتواضع رقم (٢٥٨٨) ، وغيره .

والمصلحين يمكن للناس أن يتجاهلوها ولكن ليس إلى الأبد ، وستكشف من أعماقها وسيعض الناس عليها بالنواجذ .

قد يخدع الإنسان الذي ينظر نظرة عجلى إلى ما ورد من العقوبات ومن الشدة فيها ، ولكن هذه العقوبات وهذه الشدة هي من نوع الشاذ عن القاعدة ، إذ الناس لا يعيشون على الأدوية بل يعيشون على الأغذية ، والقواعد العامة لا توضع للشواذ . إن هذه شبهة ظاهرية تصرفنا عن الحقيقة العميقة ، وسيبعث الله علماء يكشفون هذه الحقائق المهملة ، وإذا كان دور الأنبياء قد انتهى بعد محمد ﷺ ؛ فإن ورثة الأنبياء سيعيدون الأمر إلى نصابه وسيجدون حلولاً لهذه المشاكل بشكل لم يخطر على بال أحد ، وسيكشف الله هذا في آيات الآفاق والأنفس ، وفي سننه التي لا تتغير ولا تتبدل ، وفي سنن التسخير التي أوجدها على هذه الأرض .

إن الصلاح والإصلاح درجات بعضها فوق بعض ، وكذلك الرفق الذي ما كان في شيء إلاّ زانه ، والعنف الذي ما كان في شيء إلاّ شانه ، إن ما يحصل بالرّفق لا يحصل بالعنف أبداً . متى

سنفهم هـــذا ؟ متى نرتقي إلى الأعلى ؟ متى يخرج العنف من أيدينا وألسنتنا وقلوبنا ؟

إن ترك العنف اليـــدوي ليس كافيـــاً حتى نترك عنف اللسان ، وقديماً قـالوا : « جرح السنـان قـد يبرأ ، ولكن جرح اللسـان ليس لـه انـدمـال » ، ولكن كيف السبيـل إلى إخراج العنف من القلـوب ؟ أمـا إنـه إن لم يخرج من القلب فستظـل البذرة قـابلـة للنمو في كل حين ... ينبغي أن ننزع العنف والغل من القلـوب : ﴿ وَنَـزَعْنَـا مَـا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِـلٍّ ﴾ [الأعراف : ٤٣/٧] ؛ ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّـذِيْنَ آمَنُوا ﴾ [الحشر : ١٠/٥٩] .

إن طهارة القلب وشفاءه من العنف هو الـذي يخلق مملكـة الحب ، يخلـق دار السعـادة ولـو من طرف واحــد ، فــالــذين يتخلصـون من العنف القلبي سيشعرون بــالسعــادة والرّاحــة ، وسيُعرفون بسيمـاهم مقـابل أولئـك الـذين يُعرفون بلحن القول . إن دلائل الحب لا تخفى على أحـد ، كما أن دلائل العنف لا يمكن إخفاؤها .

إنني أريد أن أفتح شهية طلاب المعالي ، طلاب الدرجات العلى ، المتنافسين المستبقين إلى الخيرات إلى البركات والرحمات .

لهـذا كان اهتمام القرآن بـأمراض القلب وليس بـأمراض الجسد ، إنه يهتم بأمراض القلب النفسية الفكرية ، ولهذا اهتم الصوفية والصالحون بطب القلوب وقوت القلوب وتزكية النفوس . وفي هذا العصر انضم أطباء النفوس إلى أطباء الأجسام ، لقد بدؤوا ينتبهون إلى أمراضها : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٣٨/٨٨] ، فقد تهيأت أسبابه وجاءت أشراطه .

قوله تعالى : ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [الأحقاف : ٤٦/١٦] : هذه الآية قاعدة عظيمة للسلوك ، تنميه في الاتجاه الصحيح ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ نبحث ونفتش عن العمل الحسن ونخرجه من الزوايا الميتة ونسلط الأضواء عليه ، كما تفتش النحلة عن الأزهار والروائح والمذاقات الطيبة . ينبغي أن نسلك سبيل الله في البحث عن الحسنات ودفن السيئات والإعراض عنها .

وأنا أعدُّ هذا قارَّة من القارّات المجهولة التي سيكتشفها الإنسـان ، وسيتخلص بها من آلام الفساد وسفك الدماء ﴿ لِمِثْلِ هَـذا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ ﴾ [الصّافّات : ٣٧/٦١] ، وإذا كان الله قد خلق من وسائل المواصلات المادية مالم يخطر على بال أحد ؛ فسيخلق من وسائل التواصل بالقلوب ما لا يخطر على بال أحد أيضاً .

لقد عارض الصوفي العظيم جلال الدين الرومي أستاذ محمد إقبال ، عارض الفكرة القديمة التي جعلت الخل الوفي من ثالث المستحيلات ، وقد نقل عنه محمد إقبال في ديوانه (الأسرار والرموز) هذا المعنى فقال :

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى ... له في كل ناحية مجال
يقول مللت أنعاماً وبهماً ... وإنساناً أريد فهل يُنال
فقالوا : قد بحثنا ذا محالٌ ... فقال : ومنيتي هذا المحال

نعم إن منيتنا هذا المحال ، الذي صنعه سيد المرسلين محمد ﷺ ، فغيَّر الناس في أصعب البيئات إلى خير أمة أخرجت للناس ، إنه لم يكن خارقاً بل كان قدوة وسنة يقتدى به ،

وما فعله يمكن أن يُفعل ويعاد إنتاجه بطب القلوب وقانون النفوس وسنة الله :

لا تقُل قد ذهبت أربابه   كل من سار على الدرب وصل

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيْداً ، وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج : ٧٠/٦-٧] .

أعتقد أن الناس سيندهشون حين يمسكون بطرف الموضوع ، سيندهشون وسيعجبون للكيفية التي كانوا يعيشون عليها في ظل الحقد والظلم والغضب والسُّخط .

حين يبدؤون بتلمس نور الرحمة والرضوان من الله سيسعى نورهم بين أيديهم ، وسيقول لهم الناس : ﴿ ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ [الحديد : ٥٧/١٣] . ستوقد أنوار القلوب وسيضيء الكون بذلك النور العظيم ، نور خالق الإنسان في أحسن تقويم ، نور الله ونور الذين ينظرون بنور الله : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ

تَمْسَسْهُ نـارٌ ، نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْـدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَـاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النُور : ٣٥/٢٤] .

ومحمد إقبال الفيلسوف الصوفي العظيم يقول :

إنمـا المـؤمن بـالحب قهر مـؤمن لا حبٌّ فيـه قـد خسر

محمـد إقبـال هـذا العـاشق يضرب مثـلاً في سـوس الكتـاب والفراشـة ، ويتصـور أنـه سمـع حـواراً بين سـوس الكتـاب والفراشة ، كان سوس الكتاب يشكو العيش في الظلام ويقول : لقـد خرقت كتب الفـارابي وابن سينـا والتـوحيـدي ، ولكنني لا أزال أعيش في الظلام ، لم أرَ النور بعد .. فـأجـابتـه الفراشـة قائلة : ولكنني أرى نكتة لا ترى في الكتـاب ، إن النور في واقع الحيـاة ، عِش مع النـاس وتعـامـل بـالحب واعثر على الحب في ذاتـك ، عنـدهـا سترى النـور في كل مكان ، الجميـع يشتـاقـون للخروج من الظلام ورؤية النور ، حان وقت الإضـاءة ، وقت النـور فكن كموسى الـذي طلب الهـدايـة من النـور ، تقـدم إلى النور والتمس النور ولا تيأس : ﴿ إنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ

القَومُ الكَـافِرُونَ ﴾ [يوسف : ١٢/٨٧] . أعِـدِ الأمل إلى القلوب ، أرهم نـور الحبِّ ، أشعرهم بلحظـة الحب ، أضئ الشمعـة ، أرسـل أنـات الحب من نـايـك ، تعرَّف على المحبين العظـام في العـالم ، تأمل كم نجماً لمع في سماء الحب ، تعلم الهداية من نجوم الحب ..

في الصدر الأول كان الفقـه والتوحيـد والسلوك ، كل هـذه الأمور كانت تُعاشُ بشكل متداخل ، كان الشخص الواحـد يتعلم كل هذه العلوم كما في الطب العام ، لكن طبيعـة الحيـاة فرضت تقسيم الأعمـــال والاختصـــاصـــات ، فبـــدأ التميز والفصـــل والاختصاص ، لقد كان التوحيد وأمور أخرى داخلاً في الفقـه ، ولهذا سمَّى أبو حنيفة كتابه في العقيدة (الفقـه الأكبر) ، وحين نتحدث عن الصوفية فإننا نتحدث عن فرع واختصاص من هذه الاختصاصـات ، وكان الحسن البصري آخر الجـامعين أو أول من بدأت عنده ملامح الفصل .

وقد اهتم الغزالي في كتابه (إحياء علوم الـدين) بـالجـانب السلوكي العملي . أمـا أنـا فليس هـذا موضوع بحثي ، إن بحثي في سنن تغيير ما بالأنفس ، يجب على الباحثين المختصين أن يدرسوا

هـذه السنن . وحين يكتب ابن قيم الجوزيـة السلفي كتـاب (مدارج السـالكين) ؛ لم يتحول إلى صوفي من الصوفيين الـذين كانوا يتنازعون معه .

إن مـا نريـد إحيـاءه هـو فلسفـة التعـامـل مـع الأنفس ، وتسخير قوانين التعامل مع الأنفس ؛ لنزيل من العـالم الإسلامي عوامل التباغض ، والتحاسد ، والكراهية ، والتدابر ، والتقـاتل الشرس فيما بينهم ، الذي غـالبـاً مـا يكون أفظع من تقـاتلهم مع أعـدائهم الحقيقيين ، وليس هنـاك عـدو أكبر من جهل الإنسـان لـذاتـه ؛ لنفسـه ولأنفس الآخرين ، إنهـا حرب الأوهـام والأشبـاح ، ولهـذا كان من كـلام السلف قـولهم : « يـا عـدو نفسه » كانوا ينطلقون من قاعـدة : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النِّساء : ٧٩/٤] .

سيعـود هـذا العلم للظهـور والبحث والتـدقيـق ، وسيجـد النـاس لـه تراثـاً عظيمـاً في القرآن ، والسُّنـة ، وأعمـال الصحـابـة والتـابعين ، وتـابعيهم إلى يومنـا هـذا . إن القرآن يضعنـا أمـام مفاهيم عظيمة : ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصّلت : ٣٤/٤١] ، وقوله : ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [الأحقاف : ١٦/٤٦] .

إن هذه المفاهيم ستحيا . إن هذه المفاهيم هي التي أنتجت القاعدة الصوفية العظيمة : (أن تعيش مع الحق بلا خلق ، وأن تعيش مع الناس بلا نفس) .

ليس هذا تناقضاً بل هو عين قانون التسخير ، بهاتين الجملتين يتسخر الكون ، أن نعيش مع قوانين الله وسننه بدون أن نبالي بأحد . عندها نكون مع الحق بلا خلق : ﴿ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢/٦] وفي الوقت نفسه (أن تعيش مع الناس بلا نفس) .

كيف سنفهم هذا ؟ كيف سنمسك بالصواعق فنذللها ؟ كيف سنذلل هذه النفس التي بين جنبينا ؟ كيف نُعَلِّمها الدفع بالتي هي أحسن ؟ كيف سنغير المفاهيم التي تعيش في أذهاننا ،

والتي تجعل حياة الناس جحيماً وعداوة بحيث لا يستطيع الواحد أن ينظر إلى وجه الآخر ؟ كيف نجتث هذه الجذور ؟ كيف نزكي هذه النفوس ؟ كيف ننتشلها من أسفل سافلين ؟

هذه هي وظيفتنا ، وهذا ما أسعى إليه ، وهذا ما أنصح به ، ليتنافس الناس فيه .

إن مجيء الحق سبب كافٍ لهلاك الباطل ، بروز النور يؤدي تلقائياً إلى ذهاب الظلام : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء : ١٧/٨١] ، إن الباطل سيموت موتاً طبيعياً بمجيء الحق ، ولا يحتاج الأمر إلى قتل وعدوان ، وبهذا يظهر الحقّ للوجود . وعن هذا عبّر ابن تيمية حين قال : « تنصر الحق وترحم الخلق » ، لقد أعاد معنى القاعدة بلفظ آخر ، نتيجة للتجارب والمحاولات التي قام بها هو والسلف الصالح من هذه الأمة ، وقد كتب ابن تيمية كتاباً بعنوان : (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) .

إن هذا العمل الذي قد يعتبر صغيراً قابل للزيادة والتقدم إلى الأمام .

ينبغي أن نعرف مزايا أسلافنا ونقائصهم ، إن لابن تيمية كلاماً جميلاً في هذا الموضوع فهو يذكر أن الخطأ ممكن من الرجل الصالح ، إذ هو غير معصوم وليس عليه حرج إن وقع في الخطأ ، ولكن خطأ هذا الرجل يكون سبباً لفتنة يقع فيها فريقان : فريق يريد أن يصحح هذا الخطأ فيدافع عنه ، وفريق يريد أن يتخذ من هذا الخطأ سبباً في الطعن في صلاح هذا الرجل وتقواه . إنني أنقل هذا الكلام من ذاكرتي بمعناه لا بلفظه ، وأعتقد أن هذه المعاني هي التي ينبغي أن نحييها .

إن ابن تيمية ذاته في موطن شد ودفع ، إنه في موطن يتنازع حوله الناس ، فالبعض يدينه وينكر إمامته ويستنكر كلامه ، والبعض مستميت في الدفاع عنه . ليس من مزايا ابن تيمية تأييده لذبح الجعد بن درهم في عيد الأضحى ، لأن ابن درهم كان يؤول الصفات ، نعم ليس من مزاياه القبول بهذا ، بل هو من نقائصه ونقائص تلك العهود التي يشترك فيها كل الفرقاء ، وحتى المعتزلة العقلانيون الذين هم في موقع هجوم ودفاع في العالم الإسلامي أيضاً ؛ حتى هؤلاء لم يتسع صدرهم

لبقاء الإمام أحمد بن حنبل على قوله بأن القرآن غير مخلوق . علينا ألا نتحمل أوزار هؤلاء القوم وألا نعتمد على فتاواهم في جواز قتل المسلمين لبعضهم ، علينا أن نعود إلى القواعد ، إلى قوله تعالى : ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [الأحقاف : ١٦/٤٦] ، علينا أن ننصر الحقّ ونرحم الخلق ، علينا أن نكون مع الحقّ بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس .. علينا أن نسير في هذه الدروب والمسالك حتى يتميز لنا الطيب من الخبيث ، ونسأل الله أن نكون فاتحين لباب الإنصاف ، وأن يجعلنا من القوّامين بالقسط ، الشهداء بالحق .

لقد كان البشر يأكلون لحم البشر ولكنْ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ [البقرة : ١٣٤/٢] ، ومن تلك الأمة خرج الذين علّمونا أن نشمئز من هذا العمل .

إن الشيخ محيي الدين بن عربي موطن نزاع وجدال قائمَيْن غير قاعدَيْن .. هذا الجدل ينبغي أن ينتهي ، ويجب أن ننتقل من عالم الأشخاص إلى عالم الأفكار ، فالأشخاص معرضون للخطأ عن جهل وعن عمد وعن هوى ، والثقافة العامة والمفاهيم

المشتركة تفرق الناس وتجعلهم يتبادلون الاتهامات ، ولكن الزمن يتجاوزهم جميعاً : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٢/١٣٤] .

لقد عشت مراحل عجيبة في حياتي ، وكما يقول محمد إقبال :

ليس يخفى على القلندر فكر ساور النشء ظاهراً أو خفيّاً
أنا عندي بكل حالك خبر فبهذا الطريق سرت مليّاً

إنني لا أقول أنه لا يخفى عليَّ فكر ، فلقد علمتني تجاربي وحياتي أن ما يخفى عليَّ من الأفكار كثير وكثير جداً ، ومع ذلك سرت بهذه الدروب مليّاً ، ووجدت قبساً أو بصيصاً ربما أتمكن من نقله إلى الآخرين ، وإقبال نفسه يقول :

همت حيناً بذوات الحور وتعشقت ذوات الطرر
وعلى الراح صحبت الغانية حين أطفأت سراج العافية

إن من مشكلات الصوفية أنهم يعبرون عن الأحوال

الفكرية بالرموز الغزلية .. نعم إننا عشنا العداوات حين أطفأنا سراج العافية ..

أما إنني لا أعلم المراحل التي مرَّ بها الشيخ محيي الدين بن عربي ، ولكنه يعبر عنها بقوله :

قد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي — إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ — فمرعىً لغزلانٍ ودير لرهبانِ
أدين بدين الحب أنى توجَّهَت — ركائبُه فالحب ديني وإيماني

لا أعلم الكثير عن محيي الدين بن عربي ، ولست متخصصاً في دراسته وتقصي مصطلحات الصوفية كما فعلت الدكتورة سعاد الحكيم ؛ ولكنني أشعر بأنني كنت لا أطيق الإنسان إذا لم يكن ديني إلى دينه داني ، ولقد مررت بهذه المراحل ، وعشت في الدوائر المغلقة والاتجاهات المتقوقعة حين أطفأت سراج العافية .. ولكنني اكتشفت أن الفقراء في الفهم والعلم هم الذين يضيقون بالأديان والمذاهب الأخرى ، والأغنياء والأقوياء فكرياً هم الذين لا يتضايقون من الأفكار المخالفة ، إن سعة

صدرك ورحمتك تكون على قدر معرفتك بالصواب ، وعلى قـدر معرفتك بطبيعة الإنسان ، ومن لا يثق بأفكاره ولا يثق بالناس يتقوقع وينسحب من الحياة .

إننـا سنكتشف ديننـا ، وسنكتشف العـالم ، وسنكتشف الإنسـان ، وسنعلم أن الزبـد الـذي لا ينفـع سيـذهب جفـاءً رغم تمسك المتمسكين بـه ، وسيبقى في الأرض مـا ينفع النـاس ، وإذا كنا زبداً فسنـذهب جفـاءً ولن نكون من المـأسوف عليهم ، لأن ما يبقى هو النافع فقط .

لم أعـد أخشى أن يظنوا الله مخطئـاً ، فـالله فـوق الخطـأ ، ولكنني صرت أخشى على نفسي ، صرت أخـــاف من خطئي ، وأعتقد أن هذا تحرر عظيم ، هذا المفهوم وهـذا الحـال الصوفي هو الذي جعل ابن عربي ينطق بهذه الأبيـات ، ولعل بعض النـاس جعلوه يقول هذا ، وعلى كل حال لا أعتقـد أن هـذا الأمر مهم ، ولكن المهم هـو : كيف نجمـع كلمـة المسلمين ؟ إنهم يظنـون أن الوحدة لا تكون إلا بالقضـاء على الأفكار الأخرى التي يعتقـدون أنهـا بـاطلـة أو خـاطئـة ، وذلـك بـإعلان العـداوة والبغضـاء ،

ومحاربتها باليد واللسان والقلب . إن هـذا ليس في مقـدورهم ، وسيظل النـاس مختلفين : ﴿ وَلاَ يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِينَ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّـكَ وَلِـذَلِـكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١/١١٧-١١٨] ، إن القضـاء على الخطأ يكون بـإبراز الصواب ، بهـذا الأسلوب أنقـذ نفسي وأنقـذ تاريخي .

إن كتابـاتي السـابقـة وإن كانت تهتم بـإبراز الصواب الـذي أعتقده ، لكنها لم تكن تتجاوز عن الأشيـاء التي أظنهـا سيئـاتٍ وأخطـاء ، أمـا الآن فـإنني أرى أن علينـا أن نتقبـل من النـاس أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئـاتهم . إننـا دعـاة ولسنـا قضـاةً أو شرطة .

إن فكرة أن تعيش مـع النــاس بــلا نفس فكرة صعبــة ، ولكن علينـا أن نقترب منهـا لأنهـا طريق ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النَّجم : ٥٣/٣٢] .

ومع الأسف الشديد فإن تنـاولي لهـذه المواضيع الهـامـة هو تناول الإنسان الضعيف الذي لا يزال يخلـط نصرة الحقّ بـإيـذاء الخلق ، وليس تناول الإنسان القوي .

إننا حين نعرض أفكاراً جديدة أو نحيي أفكاراً قديمة بشكل جديد ؛ إنما نهدف إلى إنشاء علاقاتٍ جديدة تمكننا من التواصل ، علاقات جديدة تكون بدائل عن العلاقات القديمة .

إن البديل الذي أدعو إليه هو ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، لا إكراه في المذهب ، لا إكراه في السياسة ، البديل هو ألا نزيل أي فكرة بالعنف والقوة ، وأن نترك الأفكار الخاطئة لتموت موتاً طبيعياً . وإذا لم نكن فاهمين لهذا ، فمعناه أنه ليس عندنا أفكار تصمد مع التاريخ .

للخطأ الحق في أن يعيش ، وما لم أعط له الحق في أن يعيش ؛ فسوف لن يكون لي الحق ذاته ، هذا شيء أساسي ، فبما أننا لا نعطي للخطأ الحق في العيش فلن يكون هذا الحق لأحد منا ، وهذا ليس عند المتدينين فقط ، بل عند العلمانيين أيضاً على اختلاف طوائفهم ، وهذا ما يجعل الديمقراطية غير ممكنة التطبيق في بلادنا .

إننا نتصور أنه لا ينبغي أن نعطي للآخر حق الوجود ، والآخر عندنا خطأ يجب أن يزال ، لقد استرحت كثيراً حين

انتهيت إلى أنـه بـالإمكان أن نعيش مـع الخطـأ ، ولقـد تعجبت حين كشفت هـذا الشيء في القرآن وفي واقـع الحيـاة ، في القرآن حين يقول الله تعالى : ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إِلَيهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨/٦٠] .

وابن عربي حين قال :

لقـد كنت قبل اليوم أنكر صـاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينـــــه داني

حين قـال هـذا اكتشف أنــه يمكن التعـايش بـالحب رغم اختلاف الأديان والمذاهب والسياسات ، وأنا شعرت بهـذا أيضـاً وأقول : أيها الناس كلمة واحدة فقـط أريـدهـا منكم ؛ أن نوقف العنف وقتـل الآخر لاختـلافـه عنـا في أفكاره ومعتقـداتـه ، أن نعيش معه بالسلم وكلمة السواء بيننا وبينه .

ثم إنني كما رأيت إمكان ذلـك في الكتـاب والسُّنـــة رأيت إمكانه في تاريخ البشر ، فأوربا التي أشعلت الحربين العالميتين ،

تتقارب الآن بعد أن تعلمت التعايش بالسلام وبدون حرب ، إنَّه مثل واقعي لا يخسر به أحد شيئاً ويربح الجميع ، إن مايحدث في أوربا يمكن أن يحدث فيما بيننا في العالم الإسلامي ، إنني أناشد العرب ، والمسلمين ، وشعوب العالم الثالث سابقاً ، والعالم المتخلف الان ، أناشدهم أن يوقفوا الحروب فيما بينهم ، دون أن يخسر أحد منهم إمارته أو مملكته أو جمهوريته ، ولا أن يخسر سلفي سلفيته ، وصوفي صوفيته ومشيخته ، ولا أن يخسر أحد زعامة ولا مالاً ، وأن يتعاون الجميع بحيث يربح الجميع ، هل هذا الذي أدعو إليه منكر ؟ أليس هذا أقرب إلى رحمة الله ورحمة رسوله الذي أرسله رحمة للعالمين وليس للمسلمين فقط ؟ أليس هذا أقرب إلى إنسانية البشر والناس والتاريخ ؟ هل هذا أفظع مما يفعلُه مشايخ الأفغان ؟ ترى من الذي سيربح من دعوتي إلى حب الخير لجميع المذاهب والأديان وحتى اللادين ؟ إن ماأدعوهم إليه هو أن ينبذوا العنف فقط ، وأن يتركوا للناس حق اختيار الاتجاه الذي يريدونه بدل أن يقتل بعضهم بعضاً . من الذي ربح في حروب الخليج ؟ من الذي يربح الآن من

العنف الدائر بين المسلمين أنفسهم ، وبينهم وبين القوميين وبين القوميين أنفسهم أيضاً ؟ ترى متى نستفيق ؟

إنني أعتذر من كل الذين أنْتَقِدهم وإن لم أذكر شخصاً بعينه ، وحتى إن انتقدت اتجاهاً فكرياً فإني أعتذر أيضاً . إن علينا أن نعيش مع هذه الأفكار التي ننتقدها بلا نفسٍ ، أن ننصر الحق ونرحم الخلق ، أن نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم ، أن نعتاد على التفكير في حسنات الذين ننتقدهم ، وأن نزكّي حسناتهم .

إن لدى جميع الفرقاء المختلفين والمتقاتلين شيئاً يمكن أن يكون حسناً ، إنهم هم الذين أبقوا هذه الأمة في توقٍ إلى مثل أعلى ، وفي شوقٍ إلى تحسين أوضاعها ، إنهم لم يضيعوا هذا وهو شيء ثمين وذخر كبير ، ولكنه بحاجة إلى ترشيد ، إننا بحاجة إلى أن نرشّد المتدينين سلفيين كانوا أم صوفيين ، وبحاجة إلى أن نرشّد العلمانيين ، ليربح الجميع دون أن يخسر أحد شيئاً ، ولهذا أفتح الحوار مع الجميع ولا أطلب منهم لإنشاء الحوار والاستمرار فيه إلا نبذ العنف والاقتتال ، وأدعو إلى مذهب ابن آدم الذي

قال لأخيه : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ﴾ [المائدة : ٥/٢٨] ، إن هذا المذهب يفرضه العصر ، وتفرضه آيات الآفاق والأنفس وقانون التسخير ، إن القنبلة النووية ألغت الحرب من العالم ، ونحن اليوم نعيش عصر الانتقال إلى التكيف مع العصر الجديد الذي لم يعد الإكراه فيه صالحاً لحلّ المشكلات ..

إن ضعفنا وسذاجتنا ونقصنا كل ذلك يدفعنا إلى ذمّ الآخرين بدل أن نسلك طريق الصواب .

إنني أعترف بوجوب الالتزام بكلمة السواء وكلمة التقوى ، وألا نلوم الآخرين ، وألا نلوم إلا أنفسنا ، وأن نبدأ التواصل مع كل الناس ، وأن نطرح الحل البديل الذي نقترحه ، والذي لا يخسر به أحد ويربح الجميع . علينا أن ننشر هذا ، وأن ننشر الحب بدل الحقد ، فالحقد دليل حبّ الذات ، دليل تنزيه الذات ، وإدانة الآخرين ولومهم .

يا أيها الناس أعينوني على ذلك ولا تثبطوني .

لقد قال رسول الله ﷺ : « يا ويح قريش أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين الناس »[1] ، وأنا أقول : ويح المسلمين أكلتهم الحرب ، ماذا كان عليهم لو تعايشوا ؟!

وإذا كان الله قد أمرنا بأن نتعايش مع كل المسلمين بالعدل والإحسان ، بالبر والقسط ؛ فكيف لا نتعايش مع إخواننا في الإسلام ؟ وكيف لا نحمل هذا التعايش إلى الآخرين جميعاً ؟

إنني أنصح الشباب بأن يوسعوا صدورهم ، وأن يرفعوا رؤوسهم ، وأن يتقبلوا من إخوانهم ومن الناس جميعاً حسناتهم ، وأن يتركوا السيئات إلى الحسنات التي تذهبها .

إن ما يريح صدري وقلبي المضطرم القلق ، أنني أسمع لفتاتٍ وهمسات وتأملات في هذه المواضيع من قبل كثير من المفكرين ، أسمعهم يهمسون ويتأملون في كلمة السواء ، في كلمة التقوى .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٢٣/٤ و ٣٢٥ و ٣٢٩ و ٣٣١ ، وأخرجه البخاري بلفظ « وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم » في الشروط باب : الشروط في الجهاد .. رقم (٢٥٨١) و (٢٥٨٢) .

هذه هي الفكرة الأولى ، فكرة نقد الذات ، فكرة التوبة ، فكرة التحول إلى علاقاتٍ جديدة مع الآخرين ، وفرض قانون كلمة السواء من طرف واحد . هذا ما سنّه الأنبياء جميعاً ، الدعوة إلى الإصلاح ونزع الأغلال والآصار ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً ﴾ [الحجر : ١٥/٤٧] ، ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحشر : ٥٩/١٠] .

ينبغي ألا نحمل غلاًّ للعلمانيين أيضاً ، إنهم مساكين مثلنا ، لا يحملون رحمة بل يحملون الكراهية ، إنهم مثلنا لا يفرقون بين المرض والمريض ، إنهم يكرهون المريض بدل أن يبحثوا عن أسباب المرض ليشفوا المريض منه . كلنا سكارى ، لا يوجد بيننا رحماء ، إن على العالم أن يرحم الجاهل وأن يأخذ بيده . اللهم أرسل إلينا علماء يأخذون بأيدينا - نحن الجهلة - إلى النور والعلم والمعرفة والرحمة .

لو كنت علمانياً لقمت بنقد ذاتي أيضاً ، بدل أن ألوم الآخرين ، لأبحث عن الشيء الذي ينقصنا حتى نتعايش جميعاً ولا نسلم أنفسنا لمن يستغلنا جميعاً .

هنـاك من يقـول : نحن نتركهم ولكنهم لا يتركـوننـا . أقـول : علي أن أعلن السـلام من طرف واحـد وإن لم يتركـوني هم ، وإلا فما معنى مذهب ابن آدم الأول الـذي بـدأ بـالسلام من طرف واحد وحرّم حتى ردّ العدوان بالعـدوان ؟ وإذا كنـا سنرد على كل من يعتـدي علينـا ؛ حينئـذ سنكـون أسرى للعـدوان والعدوانيين .

إنني متأكد من أننا سنكتشف النبـأ الحق في نبـأ ابني آدم : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقّ ﴾ [المائدة : ٢٧/٥] .

الفكرة الثانية : التواصل مع الأمة

الفكرة الثانية التي أريد أن أذكرها فكرة متعلقـة بمـا سبق بشكل من الأشكال ، إذ إننا في عالم الفكر والثقافـة مُوَزعون بين من ينظر إلى الأمـة وبين من ينظر إلى قـادة الأمـة ، ولا أعني بالقـادة السيـاسيين ، بل أعني القـادة الفكريين الـذين يقومون على تثقيف وتعليم الأمـة في المـؤتمرات واللقـاءات والكتـابـات ولكننا في أكثر الأحيان نترك بقية أفراد الأمـة العـاديين ونزهد

فيهم ، وبدل أن نتوجه إلى الأمة نتوجه إلى القادة ، إلى المفكرين ، ولكن آمالنا كثيراً ما تخيب ، وقد يئست الأمة من هذه الأعمال ، وعلّقت آمالها بقضاء الله وقدره لينقذها مما هي فيه ..

نحن نزعم أننا نفكر ، ولكن لا قدرة لنا على التواصل مع الأمة ، والأخذ بيدها والعيش معها في أفراحها وأتراحها ومآسيها .

وبما أنني أعيش الحالين ، وأتواصل مع الطرفين ، فها أنا ذا أقدم المحاولة التي أتوجه بها إلى الأمة ، فهل يمكن لنا أن نصنع خطاباً راشداً ؟ وهل نستطيع أن ننشئ بيننا وبين الأمة حواراً ؟ هذا ما قصدته في محاولتي التي قمت بها في مسجد بئر عجم ، وقد قام بعملية التسجيل الصوتي شقيقي حكمت ، ونقل شقيقي محمد الكلام من أشرطة التسجيل إلى الأوراق ، وتولّت دار الفكر إخراج المجالس مكتوبةً ومرتبةً بعد تحويل الكلام المحكي إلى كلام مقروء ، وقد رأت إدارة دار الفكر أن في نشر هذه المحاولة بداية لحوارٍ فيه شيء من العمق والتبسيط .

اللهم اغفر لي خطئي وعمدي وكل ذلك عندي ، وأرسل من يصحح عملي ويكمله ليضعنا جميعاً على طريق الإنقاذ واتّقاء المهالك .

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات

جودت سعيد

الخميس : ٢٠ صفر ١٤١٥ هـ
١٩٩٤/٧/٢٨ م

مفهوم التغيير

المجلس الأول

تأملات في اللغة

نشأتها ـ تدوينها ـ علاقتها بالواقع

الإثنين ٢٠ شوال ١٤١٣ هـ

١٢ نيسان ١٩٩٣ م

تأملات في اللغة

نشأتها ـ تدوينها ـ علاقتها بالواقع

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى والآمرين بالقسط من الناس .

حرية التعبير عن الرأي :

إن للاختصاصي الحق في أن يبـدي رأيـه ، ولكن ليس من حقه أن يفرض رأيه ، وإذا كان ذا حجة فليقنع الناس بالحجة ، ولا يقبل منه أن يقول : أنا اختصاصي ، ولذلك أريد أن أفرض رأيي عليكم ، فالله تعالى لم يفرض علينا دينه بالقوة ، بل أعطانـا حرية الرأي .

إذن للاختصاصي أن يبدي رأيه ، وعلينا أن نستشيره في اختصاصه ﴿ فَاسْأَلُوا أَهلَ الذِّكرِ إن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١/٧] ، لكن لا يشترط أن نقبل رأيه لأنه ﴿ لا إكرَاهَ في الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢/٢٥٦] ، بل علينا أن نستمع القول ، فوسائل الاتصال صارت عالمية ، نستطيع عبرها أن نستمع إلى وجهات نظر الآخرين كلها ، ثم نتبع أحسنها .

ولا حرج في أن يعطى للمخطئ حق دعوة الناس إلى أفكاره ، إذا استطاع أن يقنعهم ، لأننا إن لم نعطه الحق في التعبير عن رأيه ، فلن يمنحنا هو - بالتالي - هذا الحق .

وعلى الإنسان أن يعبر عن رأيه ، دون أن ينتظر الإذن له بذلك ، وأن يتحمل تبعة الجهر بآرائه طالما أنه مقتنع بها ، فهذا رسول الله - ﷺ - لم يستأذن قريشاً في الجهر بدعوته ، وإنما مارس الدعوة ، وأعطى لنفسه الحق فيها - على الرغم من رفض الآخرين - وتحمل تبعتها ، وهو الذي كان يعلم ثقلها .

لقد كان - ﷺ - سيد الاختصاصيين ، فيما أوحاه الله إليه ،

وفيما أمر بتبليغه للناس ، ومع ذلك لم يحاول فرض رأيه على الآخرين ، ولكنه سعى إلى إقناعهم به .

من هنا كان لا بد من تحرير هذه النقاط من تاريخنا ومن حاضرنا ، لأن شهوة أن يفرض الإنسان رأيه على الآخرين شهوة غلابة ، ولعل كل النزاعات في العالم من أجل هذه الشهوة .

مفهوم الدين :

لقد حمى الله البشر واحترمهم ، عندما قال : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّين ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] ليس لأحد أن يجبر أحداً على رأيه ، والإنسان له الحق في أن يعيش بدون دين إذا كان هذا معتقده ، لأن الدين هو الشيء الذي تقبله لتعيش به ، والقرآن يذكر أن فرعون كان يرى أن الذي هو عليه دين ، فقال عن موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَو أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦/٤٠] ، والله تعالى في القرآن يقول ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦/١٠٩] ، إذن الشيء الذي تقبله لتعيش به هو دينك أيا كان هذا الشيء .

لقد احترم الله الإنسان ، وكرمه وكرم عقله وضميره وحياته ، فلم يفرض عليه شيئاً بالقوة وإنما بالإقناع .

ولكن لماذا ﴿ لا إكرَاهَ فِي الدِّين ﴾ ؟

﴿ لا إكرَاهَ فِي الدِّين ﴾ لأن الله لا يريد أن يعيش الناس منافقين ، والإنسان يعيش منافقاً عندما يخاف أن يقتل أو يؤذى ، لهذا حمى الله المختلفين من أن يؤذي بعضهم بعضاً ، لكي لا يصيروا منافقين ، ولكي لا يكتموا دينهم ، وقد ذكر القرآن أن فرعون كان يفرض دينه على الناس ، لذلك كان المؤمن يخفي دينه ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مؤمِنٌ مِنَ آلِ فِرعَوْنَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ ﴾ [غافر : ٤٠/٢٨] أما المجتمع المؤمن ، فما ينبغي أن يكون فيه من يكتم إيمانه ، لأننا نعطيه الحق في أن يعلن رأيه ، على ألاّ يفرضه على الناس بالقوة .

وإننا إن كشفنا عن طبيعة الإنسان ، وطبيعة الوجود ، نجد أن الوصول إلى أفضل ما في الفرد ، وأفضل ما في المجتمع ، لا يكون بإكراه الناس وقتلهم .

الحُسن والقبح :

ينبغي أن نسأل الآن هذه الأسئلة : كيف نفهم الحق ؟ ، وهل يمكن فهم الحق ؟ هل الحُسن والقبح شرعيان أم عقليان ؟ ما هو الشرعي ؟ وما هو العقلي ؟

لقد كان الموضوع فيما مضى ، يبحث على هذا النحو ، ولكنني أرى أن الأمر ليس بهذا الشكل ، فالحسن والقبح شرعيان وعقليان في آنٍ واحد .

وإذا لم نسأل ونستوضح عن مثل هذه الأمور ، فإن ما نبنيه عليها يكون فاسداً ، لأن ما بني على فاسد فهو فاسد ، وعيسى عليه السلام له كلمة جميلة في الإنجيل يقول : « مثل الذي يعمل بأقوالي كمن بنى بيته على الصخر ، أو كمن أسس بنيانه على شيء صلب ، فمن سقط على هذا الشيء يترضرض ، أما الذي يسقط عليه هذا الشيء فإنه يسحقه » [متى ٢١ : ٤٤] .

هذه هي فكرة الحق والشرعي ، والحَسَن والقبيح ، وهل هما شرعيان أم عقليان . نعيدها ونكررها لتتوضح ولكي

لا نكون كمن : ﴿ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة : ٩/١٠٩] .

علاقة الحق بكيفية النطق :

لكي نفهم هذه الأمور ، علينا أن نرجع إلى الكتاب والسنة ، وهما أشكال مرقومة على الورق (حروفاً) ، أو انفجارات في الهواء (أصواتاً) .

لذلك نبدأ بقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُم تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٥١/٢٣] ، هنا لما قال تعالى : ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُم تَنطِقُونَ ﴾ أجرى عملية تشبيه ، فهو يشبّه شيئاً بشيء ، يشبه الحق بكيفية النطق ، وعملية التشبيه في البلاغة لها عناصرها : (مشبه ، مشبه به ، وجه الشبه ، العاقل الذي يسوق التشبيه) . وعادة يكون المشبه به هو المعروف ، والمشبه هو غير المعروف ، نشبه غير المعروف بالمعروف لنعرف به . إذن في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُم تَنطِقُونَ ﴾ ، لكي نعرف الحق يجب أن نعرف كيف ننطق ، وماذا يحدث حينما ننطق ؟

نشأة اللغة :

عرَّف اليونان الإنسان بأنه حيوان ناطق ، وذلك لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتميز عن بقية الحيوانات بالنطق ، أي أن باستطاعته أن ينقل صوره الذهنية وأفكاره ، بواسطة الموجات الهوائية إلى الآخرين ، فأنا عندما أنظر إلى السماء ، أرى جرماً مضيئاً هو (القمر) ، وتحصل لدي من ذلك صورة ذهنية ، وإذا أردت نقل هذه الصورة إلى إنسان آخر ، فإنني أسير نحوه ، وأشير له أن ينظر إلى القمر فتحصل له الصورة الذهنية ، ولكن عندما يكون القمر غائباً ، وأريد أن أذكره للآخر ينبغي أن أصوِّره له ، وأن أشير إلى السماء بالإشارات المناسبة ، ولا يكفي هذا ، ولكن ينبغي أن نسمي هذا الجرم المضيء ليلاً في السماء باسم خاص به . والذي يحصل في جميع أنحاء العالم ، أنه حينما يولد مولود ، يوضع له اسم خاص ، ليدعى به ، وليعرف الآخرون عمن نتحدث إذا تحدثنا عنه .

إذن : الاسم أول شيء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملائِكَةِ إنِّي جَاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا : أَتَجْعَلُ

فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٢/٣٠ - ٣١] ، إذن ﴿ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ حينما استأهل الخلافة في الأرض ، وكأن في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ردّ من الله على الملائكة ، الذين اتّهموا آدم بأنه ﴿ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فعِلم آدم وقدرته ، ستجعله يتغلب على مشكلات الفساد وسفك الدماء .

حفظ التجارب بواسطة اللغة :

لقد ربطنا شيئاً لا معنى له ، بشيء لا معنى له أيضاً ، فالحروف في ﴿ كهيعص ﴾ وفي (قمر) لا معنى لها ، إلا أن موسيقى كل منها مختلفة عن موسيقى الآخر .

إنها انفجارات صوتية لا معنى لها ، وحينما نعطيها معنىً ، فإننا نقتنص شيئاً (صورة ذهنية) ونربطها بهذه الأصوات (الحروف) ، كأن نربط القمر (الجرم السماوي) بالحروف (ق ، م ، ر) ولا يوجد في الأصل أي ارتباط بينها وبينه .

إذن نحن الـذين جعلنـا للشيء الـذي لا معنى لـه معنى ، وربطنا بين الأصوات والأشياء ، وحفظنا أن هذا مرتبط بهذا .

والطفل حينما يولد نسميه باسم واحـد ، نختـاره من ملايين الأسماء ، فنسمي هـذا هـارون ، وليس بينـه وبين اسمـه أي ارتبـاط ، لقـد وضعنـا لـه اسماً لنمسكـه ونربطـه بـه . وبهـذه الطريقة نستطيع أن نقنص التجارب ، ونضعها في داخل هـذه القـوالب (الحروف) ثم ننقلهـا إلى أذهـان الآخرين ، فرأس الإنسان مستودع له فتحتان للدخول هما (العينان والأذنان) ، وفتحـة للخروج هي (الفم) ، والقرآن يُكثر من ذكر السمع والبصر كمنفذين لدخول المعلومـات وتشكيل الصور الـذهنيـة ، التي تخرج من الفم وتنتقل إلى ذهن إنسان آخر ، وهكذا .

والحيوان عاجز عن هذا الأمر ، فذلك قولـه تعـالى : ﴿ ثُمَّ أنشَـأنَـاهُ خَلقـاً آخَرَ فَتَبَـارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخَـالِقينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤/٢٣] .

هذا يعني انتقـال الإنسـان إلى مرحلـة القـدرة على تحصيل

الصور الذهنية ، والقدرة على إخراج هذه الصور بواسطة اللغة إلى الآخرين .

مراحل تطور اللغة :

إن الإنسان لا يولد عارفاً باللغة ، ولا يُعرف بدقة متى تكلم الإنسان ، وربما مضى على ذلك مليون سنة أو أكثر .

بدأ الإنسان أول الأمر بالتعبير عن طريق إشارات اليد أو الرأس أو العينين ، ثم انتقل بعد ذلك إلى التعبير بالصوت ، وتطور هذا الأسلوب إلى أن شكل اللغة ، ومنذ نصف مليون سنة تعلم إيقاد النار ، ثم تعلم الزراعة منذ عشرة آلاف سنة ، ولكنه لم يكتب إلا منذ خمسة آلاف سنة .

لقد مرّ عليه زمن طويل وهو يتكلم ويتفاهم مع الآخرين عن طريق اللغات دون أن يعرف الكتابة ، وعاش الناس مئات الآلاف من السنين يتكلمون ولا يكتبون ، وكانت التجارب تموت مع موت صاحبها ، إلاّ ما كان قد حدّث به الأجيال اللاحقة .

غير أن هـذا التسلسل الحفظي الـدمـاغي ، لم يسـاعـد على تطور البشريـة تطوراً كبيراً ، لأن أكثر التجـارب كانت تضيـع ولا تحفظ .

إننـا لا نعرف كيف تكلم الإنسـان ، ولكن التجربـة تعـاد أمامنا عن طريق الطفل ، الطفل الذي يعيش مدةً لا يعرف إلا الصيـاح ، ثم ينطـق بعـد ذلـك بـالحروف البسيطـة ، ولكنـه لا يفرق في أول الأمر بين بعض الحروف الصعبـة كالراء واللام ، وهذا يدلنا على المراحل التي مرَّ بها الإنسان .

تحليل عملية النطق :

لقـد ارتبـط مستقبـل آدم بقـدرتـه على وضـع الأسماء لكل مولود ، سواءً أكان المولـود إنسـانـاً أو فكرة أو كشفـاً أو أي شيء آخر ، يولد الشيء أولاً ثم يضع له الإنسان اسماً خاصاً به .

والأسماء إن هي إلا أصوات موسيقية ، والأصوات ذبذبـات لها توتر وقوة ، وتختلف من حرف لآخر ، فـذبـذبـة القـاف غير ذبذبة الميم ، غير ذبذبة الباء وهكذا .

وللأصوات مخارج ودرجات من القوة ، وكل هـذه الأشياء أمور تدرس فيزيائياً كما يدرس الضوء .

فالمذيع يجلس في الإذاعـة ويتكلم ، والجهـاز الـذي أمـامهُ يحول الصوت إلى موجـات مغنـاطيسيـة ، تنتقل هـذه الموجـات بـالطرق السلكيـة والـلاسلكيـة ، لتعـود مرة أخرى وتُحـوَّل إلى أصوات موجية فيزيـائيـة ، والشيء نفسـه يحـدث عنـدمـا نتكلم بالهاتف .

مراحل تسمية الأشياء :

الأصوات موجودة قبل آدم ، فالأصوات الناتجة عن حفيف الشجر وصفير الريـح وقصف الرعـد وخرير المـاء ، كلهـا كانت موجودة قبل آدم ، إنها موجودة في مخلـوقـات الله الكثيرة ، غير أن الحنجرة والرئـة صـار لهما قـدرة على إحـداث أنواع كثيرة من الـذبـذبـات ، التي تستطيـع حمـل الأسماء والمعـاني والأفعـال والمشـاعر ، غير أن المشـاعر أصعب من الأفعـال في التسميـة ، والأفعال أصعب من الأشياء ، ولذلك فإن الإنسان يبدأ بتسميـة

الأشياء قبل تسمية الأفعال ، والأفعال يسميها قبل الأفكار ، والأفكار المادية قبل المعنوية ، إلى أن ينتهي إلى تسمية المشاعر . فكلمة الحب والبغض أصعب من كلمة قام وجلس ، وهي بدورها أصعب من الشجر والحجر والرجل والمرأة ، فالمشاعر تأخذ وقتاً طويلاً حتى يستطيع الطفل تمييزها ، وأحياناً ـ وإلى يومنا هذا ـ لا نجد ما نعبر به عن مشاعرنا ، لأنها لم تتوضح تماماً .

وعلى هذا فالكلام عبارة عن ذبذبات فيزيائية ، حتى وإن كان قرآناً أو حديثاً ، لكن المسلمين عندما يريدون تفسير آية من كتاب الله يسألون البدوي والأعرابي : ما معنى هذه الآية أو الكلمة ؟ ما معنى ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ [عبس : ٣١/٨٠] ظناً منهم بأن معرفة المعاني تكون بسؤال الأعرابي أو البدوي ، لأنهم لم يبدؤوا بما بدأ الله تعالى به حين قال : ﴿ فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُم تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٣/٥١] .

أقول مرة أخرى : يجب أن نعرف كيف ننطق ؟ وماذا يحدث حينما ننطق ؟ وما هي أركان النطق ؟

ينظر شخص ما إلى الشيء ، فتصير لـديـه صورة ذهنيـة ، يضع لها اسماً فيزيائياً ، ويخبر الآخر بأنـه وضع هـذا الاسم لهذا الشيء فيفهم عليه ، ولهذا إذا عرفتَ كلمة النار بـالتركيـة مثلاً ، فإنك لا تستحضر كلمة النـار إلا بـاللغـة التركيـة ، وحينما نرى الـذين يتكلمون لغـة أخرى ، لا نفهم منهم شيئـاً ، لأننـا لم نتعلم لغتهم ، لم نتعلم الشرط المنعكس ، لم نتعلم ربط الأشياء بألفاظهم الدالة عليها .

لقد فهمنا عن كيفيـة النطق مـا يفوق فهم السـابقين ، لأن القرآن نزل والناس لا يعرفون متى وجـد الإنسـان على الأرض ، ولم يكن أحـد يستطيـع أن يعرف طرف الأرض ، وكان النـاس يظنون أن آدم نزل ومعه المحراث والثور ، لأنهم ألفوا أن الإنسان منذ آلاف السنين ، كان لـديـه الثور والمحراث ، وضـاع الزمـان الذي لم يكن الإنسان فيه قد استأنس الحيوان وتعلم الزراعة .

ولكن الأرض بعـد ذلـك تحـدثت بـأخبـارهـا وأخبـار الإنسان ، وصرنا نعرف عمر الإنسـان على الأرض ، وكشفنـا عن وقائعه ما لم يكن معروفاً من قبل .

أهمية القراءة والكتابة :

لقد نسي آدم ـ كما ذكر القرآن ـ ، لذلك كان ينبغي التذكير بالكتابة ، وأطول آية في القرآن هي آية تسجيل الدَّيْن بالكتابة ، لأن الإنسان ينسى ، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أَو ضَعِيفاً أَو لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَادُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا ﴾ [البقرة : ٢٨٢/٢] إن الخصومات تقع من جراء عدم الكتابة ، لذلك أمر الله الكاتب أن يكتب والشاهد أن يشهد ﴿ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ ﴾ ﴿ وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَادُعُوا ﴾ وأمر الذي عليه الحق أن يملي هو أو وليه إذا لم يستطع .

لقد أهمل المسلمون هذا الشيء ، لكنه الآن صار شرعةً عالمية ، ينبغي أن نسجل الدين بالكتابة ، لأن الذهن لا يوثق به ، وكثيراً ما ينسى ، والمرأة مشغولة بأمور أخرى : ﴿ فإن لم يَكُونَا رَجُلين فَرَجُلٌ وَامرأتَان مِمَّن تَرضَونَ مِنَ الشُّهداءِ أن تَضِلَّ إحَداهُما فَتُذَكِّرَ إحَداهُما الأُخَرى ﴾ [البقرة : ٢٨٢/٢] .

لقد صار التذكير والتذكر والكتابة شيئاً مقدساً (نافعاً) ، لحاجة الناس إليه ، والناس الآن يكتبون ، علموا أن هذا الأمر نزل من السماء أم لم يعلموا .

وحينما نزلت هذه الآية لم يكن عند الناس ورق للكتابة ، كانوا يكتبون على الجلود والأقمشة وأوراق النباتات والعظام ، بهذا الشكل كانوا يكتبون القرآن والأشياء الهامة لديهم .

وإن أول آية نزلت من القرآن ﴿ اقرأ ﴾ ، والقراءة بعد الكتابة وهي شيء أساسي ، لأنه بدون القراءة لا نستطيع أن نحصّل المعارف ، ولكن مشكلتنا الكبرى أننا لم نعرف المنطلق الذي نبدأ منه ، وهو كيف بدأنا النطق أو كيف خلق النطق ؟

اللغة والواقع :

لقد وضع الإنسان تجاربه وصوره الذهنية بالكتابة على الورق ، كما يحدث عندما يكتب الفلكي ملاحظاته وتصوراته عن الفلك ، أو كما يكتب آخر تجاربه مع الحيوانات أو الزراعة أو البناء ، وبالثورة الزراعية انتقل الإنسان إلى مرحلة تقسيم العمل والتخصص ، وعملية التخصص ما هي إلا تقسيم للصور الذهنية على الناس ، كلٌّ باختصاصه ، فالصور الذهنية عند الطبيب ؛ غير الصور الذهنية عند المفكر أو الباحث الاجتماعي ، الطبيب يطبب جسم المريض ؛ ولكن المفكر يطبب فكر الطبيب ، والصور الذهنية تختلف باختلاف الأشخاص ، ومثال ذلك أن الإنسان القديم شاهد البرق وسمع الرعد ؛ وهذا الحدث الواحد مشاهد من قبل جميع البشر ، ولكن التفسير أو التصور الذي يحدث في ذهن كل إنسان ، مختلف عن تصورات الآخرين ، لأن الرعد يختلف من مكان إلى مكان ، فأحياناً يكون قاصفاً ، وأحياناً يكون بعيداً خفيف الصوت ، وهناك أماكن لا يوجد فيها رعد ولا برق ، وأماكن أخرى رعدها

وبرقها شديدان ، والإنسان الذي لم يرَ البرق المتواصل لا يستطيع أن يصدقك إن وصفته له ، لأنه لا يعيشه وا يشاهده .

فإذا ما كتب إنسان كتاباً عن البرق والرعد ؛ يكون قد كتب ما انطبع عنده من صورٍ ذهنية حول ما رأى ، والقرآن يذكر البرق والرعد الشديدين فيقول : ﴿ أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماء فيهِ ظُلُماتٌ وَرَعدٌ وبَرقٌ يَجعَلُونَ أصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الموتِ واللهُ مُحيطٌ بِالكَافِرِينَ☆ يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبصَارَهُمْ كُلَّمَا أضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فيهِ ، وإذا أظلَمَ عَليهِمْ قَامُوا وَلَو شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِم وأبصَارِهِم إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٩/٢ ـ ٢٠] صحيح أننا وضعنا للبرق والرعد اسميهما ، إلا أن الفهم البشري لهما لا يزال يتوسع إلى الآن ، إذن هناك علاقة بين الكلام والذهن والواقع ، الرعد والبرق يحدثان في السماء ، ثم تنتقل صورتها إلى الدماغ بواسطة العين والأذن ، ثم تخرج منه بواسطة الفم كلاماً ، أو بواسطة الكتابة كتاباً ، ثم تنتقل إلى إنسان آخر .

إننا لا نستطيع أن نفهم المعنى الحقيقي للكلام ؛ إلا إذا رجعنا إلى الواقع ورأينا الشيء الذي نسمع أو نقرأ عنه ، وإلى الزمان والمكان نفسه أيضاً ، لأن الشيء قبل أن يصل إلينا يمرُّ بأربعة مراحل : (الحقيقة الخارجية ، ثم الصورة الذهنية ، ثم تخرج كلاماً ، ثم بعد ذلك تسجل كتابةً) والإنسان في التاريخ رأى الأشياء وتعامل معها ، ولكنه أخطأ في بعضها ، كتفسيره للبرق والرعد ، وفهمه لشروق الشمس وغروبها ، وقد ظهر أن الصحيح هو عكس ما تصوره ؛ من أن الشمس تدور حولنا .

إذن الصورة الذهنية كانت معاكسة للحقيقة الخارجية ، كيف كشفنا هذا ؟ كشفنا هذا بالرجوع إلى الواقع ، والتعامل معه ، والتدقيق فيه ، وتأمُّلِه بعد معاناة طويلة عبر آلاف السنين التي مرت على الإنسان ؛ وهو يظن أن الشمس تدور حولنا ، ثم تبين خطأ تصوره ، من هنا فإن الحقيقة الخارجية التي انتقلت إلى الذهن يمكن أن تكون معكوسة ، ولا يشترط أن يكون فهمنا لها فهماً صحيحاً .

الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية :

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : كيف نعرف الحقيقة ؟ كيف نعرف أن فهمنا هو الصواب ؟ إننا لا نستطيع أن نعرف الحقيقة (المطلقة) ؛ لأن رؤيتنا وفهمنا لها يتغير من زمن إلى زمن، ومن شخص لآخر ، لذلك ليس هناك حقائق حقيقية في حياة الإنسان ، والله وحده هو الحقيقة الحقيقية ، أما نحن فكلنا حقائق نسبية ، فما يكون حقيقة في يوم من الأيام بالنسبة للناس ؛ يتجاوزه التاريخ ، ويصير شيئاً آخر ، قال تعالى : ﴿ وَيَخلُقُ مَا لاَ تَعْلَمونَ ﴾ [النحل : ٨/١٦] ، وقال أيضاً ﴿ يَزِيدُ في الخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [فاطر : ١/٣٥] ، إن كل شيء متغير ، يزيد الله فيه وينقص منه ، ووحده الله لا يتغير ﴿ لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥/٢] ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨/٢٨] .

معرفة العواقب تقرّبنا من الحقيقة :

إن مشكلة الانتقال من الحقيقة الخارجية إلى الصورة الذهنية ، ومنها إلى الكلمة ومن الكلمة إلى الكتابة ؛ إنه في كل

مرحلة يتبـدد قسم كبير من الحقيقـة ، حتى إنـه يمكن أن يكون المفهوم معاكسـاً للحقيقـة المرئيـة أول مرة ، فـالعين لا يوثق بهـا والأذن أيضـاً لا يـوثـق بهـا ، لأنهـا يمكن أن تفهم الشيء فهماً خاطئاً .

لذلك كان لا بد من إرجـاعها إلى الواقع لمعرفـة العواقب ، وهذا ما نبه إليه القرآن ، وهو ما تعلمـه الإنسـان عنـدمـا نشـأ في الأرض ، كان يجمع النباتات ويجربها ويـأكلهـا ليميز بين النـافع والضار ، كان يشعر أحياناً بالراحة ، وأحياناً كان يشعر بالمأساة أثناء تعلمه بالتجربة والممارسة .

إن معرفة الأشياء الضارة والنـافعـة تكون بـالعواقب ، فلا ارتبـاط بين النفـع وبين هـذه الأشيـاء إلا من خـلال التجربـة والممارسـة ، وكلـما استطعت أن تصل إلى شيء أكثر نفعـاً تكـون اقتربت من الحـق أكثر ، وفي كل يـوم يصـل النـاس إلى عـلاج أمراض كالسل وغيره ، كانت تعد أمراضـاً مستعصيـة كالسرطـان اليوم ، وبذلك يقتربون من الحق أكثر فأكثر .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّماء وَالأَرضِ إِنَّهُ لَحَقٌ مِثلَ مَا أَنَّكُم تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٣/٥١] إن تصحيح فهمنا للنص الذي يسجل الأحداث والأشياء ؛ يكون بالتعامل مع الواقع ، ولا يكفي التعامل مع الواقع ؛ لأن جميع الناس يتعاملون مع الواقع ، ولكن الذين يتعاملون تعاملاً أنفع وأكثر فائدة ، ويحققون نتائج أفضل هم الأصح ، وإبراهيم عليه السلام عندما قال لقومه عن الأصنام : ﴿ هَلْ يَسمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَو يَنْفَعُونَكُمْ أَو يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : ٧٢/٢٦- ٧٣] رجع إلى القاعدة التي على أساسها نحكم على الأشياء : أهي حقٌ أم باطل . والله سبحانه وتعالى قال : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ في الأَرضِ ﴾ [الرعد : ١٧/٠٣] إنك إن أتيت بمنهج في التعليم ؛ يعطي نتائج أفضل بمعاناة أقل ، تكون أتيت بالحق ، وإذا صنعت مجتمعاً جرائمه أقل ويعيش أفراده بسعادة أكبر ؛ فأنت أتيت بدين أنفع للناس ، ﴿ فَأتوا بِكِتابٍ مِن عِندِ اللهِ هُوَ أَهدَى مِنهما أَتَّبِعْهُ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص : ٤٩/٢٨] .

ولأننا ضيعنا العلاقة بين الكلمة والواقع ، وبين النافع الضار ؛ لذلك ينبغي أن نبدأ تعليم القرآن للأطفال بهذه لآيات : ﴿ فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالأرضِ إنَّه لَحَقٌّ مِّثلَ ما أنَّكم نطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٥١/٢٣] ، ولا بأس أن نعلمهم بعد الفاتحة معاني فواتح سورة البقرة ﴿ الم ﴾ ، ولا حرج في أن يكون لها معانٍ عند السابقين ، ومعان عندنا ، ومعانٍ عند الذين يأتون من بعدنا ، إنني أفهم أن ﴿ الم ﴾ (ألف ، لام ، ميم) هي الوعاء السحري الذي صنعناه لنحفظ فيه التجارب المتراكمة ، لقد خلقنا من الوهم علماً مستمراً ، إننا صنعنا وعاءً يحمل الأشياء وهو ليس بجسم ، ولا يزال الإنسان يمسك أشياء جديدة ، ويحملها بواسطة الحروف ، فجهاز (الراديو) لم يكن معروفاً ، وبالتالي لم يكن له اسم ، ولكن عندما اخترع هذا الجهاز ؛ احتاج الناس وبجميع اللغات إلى أن يضعوا له اسماً يتعرفون به عليه . وبما أن الكلام ليس هو الذي يعطي المعنى ، وإنما التجربة الواقعية ؛ لذلك أمرنا القرآن بالرجوع إلى الواقع وإلى العواقب أيضاً .

الأرضية المعرفية التي كتب على أساسها التراث :

أن نبدأ بالذي بدأنا به من فهمٍ للغة ولكيفيـة النطق ، أمر ضروري جـداً كمقـدمـة لتفسير النصـوص ؛ لأن كل التفـاسير وشروح الأحاديث كتبت حين كان العلماء لا يعرفون متى وجد الإنسـان على الأرض ، ولا كم صـار لـه عليهـا ، ولا كيف تعلم الكتـابـة ، ولا كيف تكلم ، ولا كيف يحفـظ المعنى في اللفـظ ، وكل هـذا نعيشـه نحن الآن . لقـد كانوا يقرؤون قـولـه تعـالى : ﴿ والخَيْـلَ والبِغَـالَ وَالحَمِيرَ لِتَركَبُـوهَـا وَزِينَـةً ، وَيَخْلُـقُ مـا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحـل : ١٦/٨] كانـوا يقرؤون هـذه الآيـة ولا يخطر في بالهم ماذا يمكن أن يخُلق ، ولا يعرفون أن الإنسـان أتى عليه حين من الدهر ، مئات الآلاف من السنين ليس عنده حمار ولا فرس ولا حيـوانـات أهليـة ، لكننـا رأينـا بـأعيننـا كيف عُطلت الحيوانات والإبل والبغال ، وصار من الخرافة أن يذهب إنسان من بئر عجم إلى دمشق بواسطة الفرس أو الحمـار أو العربـة التي يجرها الثيران ، وفي المستقبل ستتغير الأمور أكثر ..

إذن إن المفسرين العظام الكرام من أسلافنا ؛ لم يكن لهم قدرة على تصور هذه الأشياء ، ولم يفهموا تاريخية العالم وتغيره ، ولم يعرفوا أن الإنسان عاش مئات الآلاف من السنين ليس عنده محراث ولا يزرع الأرض ، كانوا يظنون أن الخبز نزل مع آدم ، ولم يعرفوا أن الإنسان تعلم صناعة الخبز منذ عشرة آلاف سنة فقط ، وتعلم أن الحب المحمَّص طعمه ألذ ، وذلك من الحرائق التي كانت تحدث .

بعض نتائج التعلق بالقديم وإهمال الواقع والعواقب :

لقد كتب التاريخ والتفسير فيما مضى ، اعتماداً على هذه الأرضية المعرفية ، وهو ما يحول بيننا وبين أن نفهم الوضع الذي نعيشه ، والذين يتعلقون بهذه الكتب يعيشون العقلية الماضية ، ولا يعترفون بآيات الله في الآفاق والأنفس والله تعالى يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٤١/٥٣] ولا يحاولون أن يقرؤوا ، وإذا ذكرتهم بذلك فلا قدرة لهم على الفهم .

لقد دلت آيات الله في الآفاق ، آيات الواقع في هذا العصر ، على أنه لا يمكن كسب الحرب بالدبابات والطائرات في العالم الإسلامي ، وربما ينجح المسلمون إذا تركوا هذه الأشياء وقاتلوا بأشياء أخرى ، كما حصل في ڤيتنام ، ولكن المسلمين لا يزالون يشترون الطائرات والدبابات التي يستخدمونها في الغدر ببعضهم البعض ، وكلما قوي بلد هجم على جاره ، الذي بدوره يلتجئ إلى أمريكا لتحميه من أخيه ..

لقد نبذنا كتاب الله ونبذنا سنة رسوله - ﷺ - واعتبرناه خروفاً لا يفهم ؛ لأنه كان في مكة يُضرب ولا يردُّ ، ويأمر أصحابه ألا يردّوا الاعتداء . وينطبق على العالم الإسلامي اليوم قوله تعالى : ﴿ لَهُم أعيُنٌ لاَ يُبصِرُونَ بهَا وَلَهُم آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كالأنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمْ الغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩/٧] .

إن عدد المسلمين جاوز (المليار) من أندونيسيا إلى المغرب ، ولكنهم يعيشون كالمسحورين ، يلعب بهم الآخر ، ترى أين علماؤهم ؟ أين مفكروهم ؟ أين اليساريون ؟ وأين

القوميون منهم ؟ أين الليبراليون ؟ أين علماء السنة وأين علماء الشيعة ؟ أين الخرافيون ؟! كلهم يستعدون ليقتل بعضهم بعضاً .

يجب أن نعمق هذه الأشياء ، ونفهمها جيداً ، لنأخذ بيد الإنسان خطوة خطوة ، وندخله في العالم الجديد ، وإذا لم نفعل ذلك ، فستحصل المأساة ، وسيتقرب كلٌّ منّا إلى الله بدم أخيه ، في حروب خليجية جديدة .

إن كليات الشريعة التي تتجمد عند العقلية الماضية ؛ تصنع مثل هذه المآسي ، بتقديسها للكتب وللعلماء الأقدمين ﴿ إِنَّهُم أَلفَوا أَباءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُم عَلَى آثَارِهِم يُهرَعُونَ ﴾ [الصافات : ٦٩/٣٧ ـ ٧٠] .

إننا نتعامل مع الأسلحة كما تعامل قوم إبراهيم مع الأصنام ، لقد قال لهم إبراهيم : ﴿ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٢/٢١] ، ﴿ هَل يَسْمَعُونَكُم إذ تَدعُونَ أَو يَنْفَعُونَكُم أَو يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : ٧٢/٢٦ ـ ٧٣] . إننا نعبد

الأسلحة ، الدبابات والطائرات ؛ وهي لا تنفع شيئاً ، نعبدها ونخاف منها ، ونظن أنها إن ذهبت عنا فسنهلك .

عندما أراد المسلمون كسر صنم (العزى) ، طلب أهل الطائف من المسلمين أن يبقوا عليه عدة أشهر ، ولكن لما رفض المسلمون ذلك ، قال أهل الطائف : لا بد أن نخرج من هنا لأنكم إن كسرتموه فستصيبنا مصيبة .

إننا لا نزال مثل أهل الطائف نعبد أصناماً ونظل لها عاكفين ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنهُم سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبصَارُهُمْ وَلاَ أَفئِدَتُهُمْ مِن شَيءٍ ﴾ [الأحقاف : ٤٦/٢٦] .

في القرآن آيات تأمر بالعودة إلى آيات الله في الواقع ، والمسلمون جميعاً يقولون : إن الإسلام دين العلم والعقل ، ولكن بمجرد أن تبحث موضوعاً ما على أساس العلم والعقل تصير كافراً ، وعليك أن تعود لتمشي مع الكتاب بدون علم ، فالعلم والعقل برأيهم يضلان ، وما فائدة الكتاب المبين إذا لم نعتمد في فهمنا له على العلم والعقل ؟!

إننا إذا تحدثنا إلى الناس بهذا الحديث ، فإنهم لا يفهمونه ولا يقبلونه منا ، ويقولون : هل يعقل أن تفهموا الآن ما لم يفهمه العالم الإسلامي الضخم بكل من فيه من علماء ومشايخ ومفكرين وسياسيين ؟ لقد نقل الله عن فرعون قوله : ﴿ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولى ﴾ [طه : ٢٠/٥١] . لكن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ تِلكَ أُمَّةٌ قَد خَلَت لَهَا مَا كَسَبَت وَلَكُم ما كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢/١٣٤] .

حقاً لقد نجحوا على قدر علمهم وفهمهم ، وعلينا أن نستخدم علمنا وفهمنا لكي ننجح مثلهم .

والحمد لله رب العالمين .

المجلس الثاني

سياسة الإسلام

الصدق - بناء الثقة - نبذ العنف - الرشد

الإثنين : ٢٧ شوال ١٤١٣ هـ

١٩ نيسان ١٩٩٣ م

سياسة الإسلام

الصدق - بناء الثقة - نبذ العنف - الرشد

قراءة التاريخ :

القراءة مثل القضاء ، يمثل أمامه المدعي والمدعى عليه ، ويستمع لكليهما ، كذلك القارئ ينبغي أن يقرأ الشيء وضده ، وما لم يفعل لا يمكن أن يدرك الموضوع ، وحتى الآن فإن العالم الإسلامي يريد أن يحمي نفسه بعدم قراءة الآخر وبعدم سماعه .

إننا غائبون عن العالم لا نعرف ما يحدث فيه . ونحن - مع الأسف الشديد - إلى الان لم نقرأ العالم الآخر قراءة واعية ، ولا قراءة غير واعية .

كان أولى الناس بالذهاب إلى الغرب والدراسة فيه هم علماء العالم الإسلامي وشيوخه ، ولكن علماءنا لم يقرؤوا بعد تاريخ الغرب ، ولم يتعرفوا على الأحداث التي وقعت فيه بين المتدينين وغير المتدينين ، ولو قرؤوا لشاهدوا واقعنا تماماً ، لأن الذي حصل في الأمم الماضية سنّة تتكرر في الأمم الأخرى ، فأحياناً نجد عندهم سلفية تتنازع مع الآخرين ، تماماً كما هي عندنا .

في قوله تعالى : ﴿ انْظُرُوا ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٢٠] ، تنبيه إلى وجوب الاستفادة من أحداث التاريخ ؛ فالتاريخ صار مصدراً للمعلومات ، فإذا لم يوجد في التاريخ كله ما نحن بحاجة إليه ، هنا نكون معذورين ، لذلك يأتي قوله تعالى : ﴿ انْتَظِرُوا ﴾ [الأنعام : ١٥٨/٦] ، فالمستقبل سوف يأتي بأشياء جديدة لم تحدث قطُّ في التاريخ .

إن المستقبل سيطالعنا بعلم كبير بين كلمتي (انْظُرُوا) الماضي و (انْتَظِرُوا) المستقبل .

ذهنية التقليد :

إلى الآن لم ننظر ،ولم ننتظر ، لم ندخل التاريخ بعد ـ كما قال محمد إقبال ـ، لم نقرأ ، ولم نتعلم ، وجامعاتنا وأساتذتنا لا يعلّمون القراءة ولا الفهم ، ومن يقرأ الثقافة الغربية منا ، يقرؤها قراءة مقلّدة ، فإن نحن اختلفنا حول تشغيل آلة مستوردة ؛ أسلوب التعامل معها ، وعدد الأشخاص الذين يعملون عليها ، وطاقتها القصوى ، وسرعتها ، فإننا نلوذ بالمذكرة المرافقة لها للتعريف بها ، نقرؤها قراءة تقديس ، كما نقرأ القرآن ، نتقيد بأقوال الصانعين ، كما نتقيد بأقوال الفقهاء ، لانبحث كيف ولماذا صنعت ؟ ولا نتعامل مع الواقع ، ولا نأخذ بعين الاعتبار الظروف المحيطة ، وبالتالي لا نطور أساليب استخدام الآلة وطرق التعامل معها .

ومن يدرس في الغرب يحمل التقليد معه ، ويبقى مقلّداً ، لا يتعامل مع الوقائع والأحداث المتغيرة .

وحتى كبار الفلاسفة والعلماء والقوميين عندنا ، لا يشعرون

بضرورة قراءة القرآن وفهمه ، بل يتركون هذا الأمر للمشايخ الذين يعتبرون أنهم - دون غيرهم - أصحاب الحق في فهم القرآن وتأويله .

النص والواقع :

يذكر محمد إقبال أنه تخيل ذات ليلة ، حواراً يدور بين سوس الكتاب (كائن يخرق الكتب) وبين الفراشة فنظم هذا الحوار شعراً ، وقال : كان سوس الكتاب في ليلة من الليالي يناجي الفراشة ويشكو إليها حاله فيقول : لقد خرّقت كتب الفارابي وابن سينا والجاحظ والتوحيدي وأرسطو ، ولكنني لا أزال أعيش في الظلام ، وترد عليه الفراشة قائلة : أما أنا فإنني أرى نكتةً لا تُرى في أي كتاب .

يشير محمد إقبال عن طريق هذا الحوار الرمزي ، إلى الفرق بين من يتعامل مع الوقائع ومن يتعامل مع النصوص دون الرجوع إلى الواقع ، إنك إن جمدت أمام النصوص تكون كسوس الكتاب ؛ تخرّق الكتب فتجدها متشابهة مكررة لا توصل إلى

النور ، لكن قراءة الواقع تزودك بـأفكار ومعلومـات لا يمكن أن تحصل عليها من الكتب .

إن تراثنـا الضخم يحتـاج إلى بـاحث حـاذق ، يخلصـه من التكرار ، ويضع الأفكار المتداولة في كتاب واحـد ، وأعتقـد أن هـذا الكتـاب لن يكـون كبيراً ، لأن الأفكار المتـداولـة أكثرهـا مكرر ومعـاد ، ولا يـوجـد لـدى المسلمين إبـداع فكري ؛ لأنهم يرتـابون من كل جـديـد ، فلا يـأخـذون بـه ، ولا يستفيـدون منه .

وظيفة الأنبياء :

لا نزال نعيش مصفدين بالأغلال والآصـار ، والأنبيـاء إنمـا جاؤوا ليضعوا عن الناس الآصار والأغلال التي تقيدهم ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَـانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧/٧] . وعيسى عليـه السلام يقول في الإنجيل : « أيهـا المتعبون ، هلمـوا إليَّ إن نيري خفيف » [متى ١١ : ٣٠] ، أنـــا أدلكم على شيء خفيف ، بدلاً من أسلوبكم الثقيل والمزعج في حلِّ المشكلات .

فأنا أفهم من قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : ١٢٠/٣] : أن بإمكاننا أن نحصل على الأمور بدون خسارة ، أو بخسائر قليلة ، لأن أغلب ما يصيبنا من مصائب ناتج عن فهمنا الخاطئ ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ، قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٥/٣] . واعلموا أنه بمجرد أن يجيء الحق فإن الباطل سيموت تلقائياً : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ [الإسراء : ٨١/١٧] .

التحرر من الخوف والنفاق والغدر :

لماذا نشعر أنه ينبغي أن نكون كذابين أو منافقين ؟ لماذا نخفي بعض الأشياء في داخلنا ؟ هل هذا من طبيعة الإنسان ؟ أم أنه خطؤنا الذي وقفنا عنده ؟ ثم ألا يمكن للإنسان أن يعيش صادقاً صريحاً ، مع نفسه ومع الآخرين ؟

لقد شاع بيننا وبشكل غير معلن ، أن نعيش منافقين وغدارين ، لقد آمنا بجواز الغدر والنفاق ؛ ولذلك نعيش جوّاً

غير طبيعي ، فالإنسان لدينا لا يشعر بالسعادة والصدق والأمان ، ويحتقر نفسه ويدينها ، وهذا من أعقد المشاكل التي نواجهها .

لقد أصبح الإنسان المسلم لاحتقاره لذاته ؛ يشعر أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، امتلكه إحساس كامل بالعجز والنفاق والغدر ، مما جعله ينهار إلى أسفل سافلين ، ويتصاغر أمام نفسه وأمام الآخرين .

بدأ هذا الموضوع بالتبلور لدي في كتاب (مذهب ابن آدم الأول) ، فحين أعلنت مبدأ ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ، مَا أَنا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ﴾ [المائدة : ٥/٢٨] ، تخلصت من الآصار والأغلال .

إن الإنسان ليتحرر بنبذه للعنف ، ويصير صادقاً منسجماً مع نفسه ومع الناس ، والذي يخاف من المخابرات يدين نفسه ويتهمها ، فإن فعل ذلك فمن ذا الذي يبرئه بعد ذلك .

أول مــــا يجب عليَّ إذن ، هــو أن أبرئ نفسي ، وأن أمشي سوياً ، بصدق وإخلاص ، وبعد ذلـك فلا حرج أن أموت وأنا منسجم مع نفسي ومتآلف مع ذاتي .

إن العالم الإسلامي اليوم مريض نفسياً ، إنه غير سوي وغير صادق ، وأبناؤه : إما متملقون يضمرون الغدر ، وإمـا متسلطون يسعـون إلى إبـادة الآخر . لقـد بحثت عن هـذا المـوضـوع في الكتب ؛ لكنني لم أجده ، لذلك تركت الكتاب ، وبـدأت أفكر في الـواقـع ، أحلـل نفسي ، وأحلـل الآخرين ، وأرى كما رأت الفراشة ؛ أشياءَ لا تُرى في الكتب ، وبعد ذلك عنـدمـا أعود إلى القرآن ، تتفتح أمامي آفاق جديدة ، وتحل العقد شيئاً فشيئاً .

قول الحق وتحريم الغدر :

لقد كتب تراثنا في الفترة التي أجاز المسلمون فيها أن يكون الإنسـان غـداراً ، ومن يقتصر في دراسـاتــه على هــذا التراث ؛ فسيجيز الغدر ، وسيرجع إلى شريعة الغاب .

فبعد الخلفاء الراشدين ؛ ضاعت سنة رسول الله ﷺ , بين

المسلمين ، وفزعوا عندما أخذ معاوية الحكم بالقوة ، وشعروا أنهم فقدوا شيئاً كبيراً ؛ لذلك أباحوا الغدر للتخلص من الغي ، فوقعوا في دوامة لا نهاية لها ، أباحوا أن يسترد الحكم بالقوة ممن أخذه بالقوة ، وظنوا كما ظن جمال عبد الناصر من بعدهم أن (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) .

استحضر المسلمون هذا ولم ينكروه ، ولم يفتِ أحد منهم بتحريمه ، ولم يضعوا قاعدة واضحة ، تجعل المسلم صادقاً ؛ يقول الحق ، ويحرم الغدر .. لذلك ظلَّ المسلم ، إذا هو سكت ، فإنما يسكت لعجزه عن مواجهة الغي ، ثم ينتظر الفرصة السانحة لممارسة العنف ضده .

هذا المرض الذي يعيشه المسلمون ؛ جعل العلماء والشيوخ في أفغانستان يتقاتلون بالصواريخ والطائرات .. إنه جرثوم مخبأ في أعماقهم وأعماقنا ، وهو موجود عند اليساريين والقوميين أيضاً ، وجميع من تربى ضمن هذه الثقافة .

والثقافة الغربية ـ مع الأسف ـ لا تحرم الغدر أيضاً ، فهي

تعطي الحق للشعوب في أن تثـور ، وأن تـأخـذ الحكم بـالقـوة . لكن الإسلام والأنبياء جميعـاً ؛ حرَّموا الأخـذ بـالقوة ، وأوجبوا حرية الرأي ، وفرضوا القانون من طرف واحد .

لقد أهملنا ثروة أخلاقية كبيرة ؛ يمكنهـا أن تُشعر الإنسـان بـأنـه سـوي ، فبـلال كان سـويـاً ، كان حرّاً كأرفـع مـا تكـون الحريـة ، لم يكن متنـاقضـاً ، لم يكن كـذابـاً ولا غـداراً ولا منافقاً ، كان يشعر بالارتياح ، يشعر بالانسجـام مع نفسه ومع العالم ومع الطبيعـة الإنسـانيـة ، إن نفسيـة بلال تحتـاج إلى تحليل ، لنبني الملايين من أمثـال بلال ؛ الـذين يمكن إيجـادهم ؛ إذا درسنا سنن تغيير الإنسان والمجتمع .

خطة النبوة لبناء الثقة والرشد :

ما يجب علينا تطبيقه هو قوله تعـالى : ﴿ وَنَزَعْنَـا مَـا فِي صُدورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانـاً ﴾ [الحجر : ١٥/٤٧] . فمع أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا ينتقدون آلهة قريش ، ويرفضون الاتجاه الفكري المسيطر في مكة ، إلا أنهم فرضوا الثقة على قريش ، فكانت تثق

بالمسلمين أكثر من ثقتها بأبنائها ، وتأتمنهم على أموالها وأعراضها وزعاماتها .

هكذا كانت خطة النبوة لبناء الثقة والرشد ، هذه الخطة التي لم يستطع العالم الإسلامي أن يستحضرها بعد ذلك ، ليعيد الخلافة الراشدة إعادة نظرية ؛ إن لم تكن عملية . لقد كتبت الثقافة الإسلامية ـ من تفسير وشروح للأحاديث ـ مرتبطة بمفاهيم خاطئة ، غير المفاهيم التي أسسها رسول الله ﷺ ، فرسول الله ﷺ حرَّم شريعة الغاب ، عندما أعلن أنه لن يعالج المشكلات بالغدر والعنف ، بل سيجاهد لرفع الإكراه عن الناس ، إذ إن الجهاد شرع لرفع الإكراه والظلم ، وليس لإكراه الناس وظلمهم ، كما يفهمه بعض المسلمين .

وكما كانت قريش تثق بمحمد وأصحابه أكثر من ثقتها بأبنائها ؛ ينبغي أن يثق بنا الذين يعيشون معنا ويخالفوننا ، أكثر من ثقتهم بحرسهم الخاص ، ولن ننجح ما لم نُعِد هذا الوضع السويَّ ؛ فنفرض احترامنا والثقة بنا على الآخر أياً كان .

الصدق والأمانة والثبات على الموقف ، بدل العنف والغدر والكذب :

إننا إن أخفينا شيئاً ؛ فسنعطي للمخابرات الحجة علينا ، وإذا مارسنا العنف لحل مشكلاتنا ، نكون قد سلمنا أمرنا لأمريكا ، التي تستطيع عند ذلك أن تتحكم بمصيرنا ، فتنصر من تشاء ، وتهزم من تشاء ، تساعد من تشاء ، وتقطع السلاح عمن تشاء ..

لم يكن بلال يعذب لإخراج أسرار أخفاها ، وإنما كان يعذب لأجل مبدئه الذي يعلنه للعالم أجمع .

وكان عمر - رضي الله عنه - يقول للجاهلي الذي يخاف اللات والعزى : اخلع عنك هذه الأوثان ، وكذلك فإنني أقول للمسلم : اخلع عنك هذه الأوثان ، التي تجعلك منافقاً ، محتقَراً من نفسك ومن المخابرات ، لأنك أمامهم كذابٌ غير صادق .

إنني أعلن للناس ، أنه ليس عندنا ما نخفيه ، وإذا سألكم أحدٌ عن أقوالكم وأحاديثكم ؛ فخفتم وفزعتم ، فإن خوفكم وفزعكم

بدل على شعوركم بـأن الـذي فعلتموه جريمـة ، أنتم أدنتم أنفسكم ، وحكمتم عليها بالخيانة والعمالة .

لم أكن فيما مضى أركّز على موضوع العنف والثقـة والأمـانـة بهذا الشكل ، كنت أبحث في خصائص الإسلام ومزايـاه ، لكنني رأيت أن هذا الأمر بالغ الخطورة ، إذ إن فيه الموت أو الحيـاة ، وقـد كثرت حولـه الخـلافـات ؛ فـالتفتُّ إليـه ، وبـدأت أسـأل نفسي ، كيف أجعل المسلم صـادقـاً ؟ كيف أجعلـه ينـام هـادئ البـال لا يبـالي بشيء ؟ فتوصلت إلى أن المسلم مـالم يتخلص من العنف ، ومـا لم يـؤمن بـالعلم ؛ فسيظـل مريضـاً ، ورأيت أن مجتمعنـا بـأكملـه مريض بمرض العنف ، بمـا فيـه من إسـلاميين وقـوميين وليبراليين ويسـاريين وغيرهم ، ومن أجـل ذلـك فـإن للجـلاد عنـدنـا دور لا ينتهي . فـإذا بـدلنـا العنف والغـدر والكذب ، بالصراحة والأمـانـة والثبـات على الموقف ؛ فسيبطل عمل الجلاد والمخابرات ، وسنخشى من عدم فهمهم لنـا ، بـدل أن نخشى من فهمهم ، لذلـك يكون من الأفضل أن يبعثوا لنـا مخبراً ذكياً يستطيع أن ينقل صورتنا الحقيقية إليهم .

وتلـك النكت والطُّرف التي يتفنن العـالم الإسـلامي في إبداعها ، للاستهزاء بقادته وأحزابه ؛ لسنا بحـاجـة إليها لننفس عن أنفسنا ، لسنا بحاجة إلى هذه الخرافات ، إننا بحاجة إلى قول الحق ، بحاجة إلى الصدق ، بحاجة إلى الأمانة ، إننـا بحـاجـة إلى أن نـدعـو النـاس إلى مـا أنعم الله بـه علينـا ، ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِـاللهِ مَـا لَمْ يُنَزِّلْ بِـهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـانـاً ، فَـأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَـقُّ بِـالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ ﴾ [الأنعام : ٦/٨١] .

بهذه الطريقة فقط ، يشعر المسلم بالراحـة والوضوح ويمشي على بينة من أمره ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِـهِ فِي النَّـاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ٦/١٢٢] .

كم أسأنـا إلى ديننـا ونبينـا وقرآننـا ، بظننـا أنـه ينبغي أن نضمر الغدر ؟ بينما رسول الله ﷺ يقول : « من أحدث أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكـة والنـاس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة شرط ولا عدل »(١) .

(١) أخرجـه أبو داود عن قيس بن عبـاد في الـديـات ، بـاب : إيقـاد المسلم =

بناء مجتمع الرشد والثقة :

كانت مفاهيم النبوة في الصدق والثقة والثبات واضحة لدى الصحابة رضي الله عنهم ، فعمار وبلال لم تأخذهما نخوة الجاهلية ليثأروا لآبائهم وإخوانهم ، وإنما أرادوا إنشاء الأمة والشريعة والقانون والكرامة الإنسانية ، أرادوا بناء مجتمع الرشد والثقة ، لا مجتمع شريعة الغاب . بينما نحن نساعد على إيجاد شريعة الغاب ، وبعد ذلك نخضع للمستبد ونذل له ، فتربيتنا علمتنا أن نخاف من القوة ، أن نخاف من أمريكا ، أن نخاف من الزوج والأب ، أن نخاف من كل من يملك القوة ، بينما بلال لم يكن يخاف من القوة ، لأنه صادق مع نفسه ومع الآخرين . إننا نبيع ثروة غالية بأبخس الأثمان ؛ لأننا لا نعرف قيمتها ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ ﴾ [فصّلت : ٤١/٣٣] .

نحن نستبعد هذه المفاهيم ، ثم بعد ذلك نقع في المشاكل التي لم نحسب لها حساباً ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا

= بالكافر ، رقم (٤٥٣٠) ، والنسائي في القسامة ، باب : القود بين الأحرار والمماليك في النفس (١٩/٨) وهو حديث صحيح بشواهده .

يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزُّمر : ٣٩/٤٧] ، لكن المؤمن الـذي يبحث الأمور ويتبين سنن الله يقول : ﴿ هَذَا مَا وَعَـدَنَـا اللهُ وَرَسُولُـهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُـولُـهُ ، وَمَـا زَادَهُمْ إلاَّ إيمَـانـاً وَتَسْلِيمـاً ﴾ [الأحزاب : ٣٣/٢٢] .

إن العـالم أجمـع يحتـاج إلى هـذه الأفكار ، فـالغرب يشعر بتأنيب الضمير ؛ لأنه غير عادل ، والمستقبل ينتظرنا ، فماذا نحن فـاعلـون ؟ ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِـكَ عَـدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ٧/١٢٩] .

ممارسة الحرية ، وفرض القانون :

إن علينا أن ننبذ المحرمات ؛ علينا أن ننبذ الغدر والقتل ، وعلينا أن نطلب العلم وننشره . لسنا بحاجة إلى طلب الحريـة ؛ فـالأنبيـاء مـارسوا حريـة الرأي والقـول ولم يـأخـذوا إذن السلطات ؛ لأن الحرية ليست شيئاً يطلب من الآخرين ، إنها شيء يمارس وتُقبل تبعاته .

إن ما يفعلـه الإسلاميون والقوميون واليسـاريون وغيرهم ؛

من المطالبة بحرية الرأي والفكر : هو عكس ما فعلـه الأنبيـاء ، فهذا نوحٌ عليه السلام يخـاطب قومـه ـ فيما ينقلـه عنـه القرآن ـ قائلاً : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَـالَ لِقَوْمِـهِ : يَـا قَوْمِ إِنْ كَـانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَـامِي وَتَـذْكِيرِي بِـآيَـاتِ اللهِ ؛ فَعَلَى اللهِ تَـوَكَّلْتُ فَـأَجْمِعُـوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَـاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّـةً ثُمَّ اقْضُـوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١/١٠] ، نمـارس الحريـة ولا نخـاف من الـوضـوح والصراحـة ؛ بـل نخـاف من الغمـوض والكتمان .

إن جراثيم الفكر تسبب أمراضـاً فتـاكـة كجراثيم الجسـد ؛ التي كانت تصيب النـاس وتهلكهم ، إلى أن عرفـوا مقـاومتهـا ، فـأوقفـوا كثيراً من الأمراض واستراحـوا منهـا ، والبلـد الـذي يصاب بتلك الأمراض الفتاكة يقال عنه : إنه بلد قـذر لا يعرف النظافة ، وكذلك فـإن البلـد الـذي يصـاب بحرب أهليـة أقول عنه : إنه بلد قذر فكرياً .

لم يكن في مكة حرب أهلية ؛ بل كان فيها جرائم وتعذيب من المشركين للمسلمين ، دون أن يرد المسلمون عليهم .

يجب أن نلجأ إلى القانون لحلّ مشكلاتنا ، فإن لم يكن موجوداً نفرضه من جانب واحد ؛ كما فعل الأنبياء . وهذا الموضوع لم يُبحث بعد حتى في الدراسات القانونية ، ولا يزال الناس يُجلدون ويقتلون في الأقبية ، ويَقْتل بعضهم بعضاً ؛ بسبب هذه الأمراض الفكرية .

كسر السيف والتخلص من السلاح :

ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[1] ، وفي حديث آخر يقول : « كن كابن آدم ، واكسر قوسك واقطع وتره واضرب سيفك بالحرة »[2] .

(١) أخرجه البخاري في الحدود ، باب : ظهر المؤمن حمى رقم (٦٤٠٣) ، ومسلم في الإيمان ، باب بيان قول النبي ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفاراً » رقم (٦٦) وغيرهما .

(٢) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم رقم (٤٢٥٦ و ٤٢٥٧) ، والترمذي في القدر ، باب : ما جاء أنه تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، رقم (٢١٩٤) وقال : (وفي الباب عن أبي هريرة وخباب وأبي بكرة وابن مسعود و ... وهذا حديث حسن) .

على الرغم من وجود هـذين الحـديثين وأمثـالهما في كتب الحـــديث المعتمـــدة ؛ إلا أن المسلمين لا يستشهـــدون بهما ولا يستخدمونها في كتب الثقافة الإسلاميـة ، فلا أحـد يقول : اكسر سيفـك ، بل إنهم يستغربون وجود مثـل هـذا الحـديث في المراجع الحديثية المعتمدة .

لذلك لم يوضع تعريف للجهاد يـأخـذ بعين الاعتبـار هـذه الأحاديث في تحديـد شروطـه ، ولم يبحث موضوع كسر السيف ونزع السلاح . وعنـدمـا لم نستطـع احتقـار السـلاح عبـدنـاه ، فكيف نستطيع كسره ؟! وإن تجاربنا الماضية والقادمة ستعلمنا أن السلاح جرَّ علينا مصائب كثيرة ؛ ولن نتحرر مـا لم نصل إلى هذه الدرجة من المعرفـة والوعي . لقـد جعلنـا السلاح كالصنم ، ولسان حاله يقول : ـ كما قال الشيطان ـ ﴿ مَا كَـانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَـانٍ ، إلاَّ أنْ دَعَـوْتُكُمْ فَـاسْتَجَبْتُمْ لِي . فَـلاَ تَلُـومُـونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٢/١٤] .

لقـد تحقـق حـديث رسـول الله ﷺ ، وصـار ينبغي أن نكسر السلاح ؛ لأن حيازته غدت جريمة ، فإن لم يكن لـديـك

إلا بندقية صيـد : اكسرهـا وادخل إلى الميـدان بـالوضوح وقول الحق . وبيّن للمسلمين أن اقتناءهم للسلاح خطأ كبير ، بيّن ذلك للقوميين واليساريين والأحرار وغيرهم ؛ لنتخلص مما يحدث بين فئـات الأفغـان ، وبين السعـوديـة وإيران ، الـدولتين اللتين دستورهما القرآن ؛ إن العداء بينهما لشـديـد ، وكل واحـدة منهما تتسلح وتعد العدة لحرب ضروس بينها وبين أختها .

إن فكرة كسر السلاح تثير السخرية أول الأمر ، هـذا أمر طبيعي لكل فكرة جـديـدة ، وعيسى عليـه السلام كان يقول : « هـذا الـذي أقولـه لكم في السّر قولـوه في العـلانيـة ، ستجـدون أناساً يسخرون منكم في أول الأمر » .

إن اختراع القنبلة النوويـة غيَّر مجرى التـاريخ ، فلم يعـد بـاستطـاعـة أحـد أن يكسب الحرب ؛ لأن القنبلـة النـوويـة أصبحت تهدد بتدمير العالم .

إن الصـواريـخ والرؤوس النـوويـة التي كلفت عشرات المليـارات ؛ لم تعـد تنفع وصـار واجبـاً تـدميرهـا ، وبـالرغم من وضوح هذا الأمر فإننا لا نستطيع قراءته ولا تأويله .

هذه الأفكار يحتاجها العالم كلّه ، وليس المسلمون فقط ، إن العالم بأجمعه بحاجة إلى الإسلام ، ومن يفهم ويستحضر هذه الأمور فإن لسان حاله يقول : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشُّعراء : ٥١/٢٦] .

تحرير الإنسان :

إن بداية أول سورةٍ في آخر رسالةٍ ﴿ اقْرَأْ ﴾ ونهايتها ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ☆ عَبْداً إِذَا صَلَّى ... كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق : ١/٩٦ـ٩ـ١٠ـ١٩] .

وفي غمرة عبادة الأصنام جاء في الأمر الإلهي ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ [النّساء : ٧٧/٤] ، أن نكفَّ أيدينا ونقيم الصلاة ؛ يعني أن نعصي ونحن نريد من الآخر أن يعرف موقفنا . قد نُضرب ، وقد نؤذى كما أُوذي بلال وضرب ، لقد ضرب وأوذي ، لكنه لم يشعر بالذّل والهزيمة ، لم يشعر بأنه متناقض مع نفسه ؛ بل شعر بالراحة والطمأنينة .

إن سجودنا لله وحده هو الذي سيحررنا ، وإذا تعلم المسلم

كيف يكف يديه ويخلع الأوثان ويسجد لله ؛ فسيرفع رأسه عالياً ، لأنه لا يخضع لغير الله تعالى .

والله سبحانه وتعالى لم يكلفنا ما لا نطيق ؛ فجعل لنا رخصة ، في حال وصولنا إلى حدّ الموت ؛ فلا مانع أن نكفر وقلبنا مطمئن بالإيمان ﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل : ١٠٦/١٦] . « وإن عادوا فعُدْ »[١] ، إن عادوا إلى التعذيب ؛ فعُدْ إلى سبِّي باللسان .

لقد ظن المسلمون أن دراسة مثل هذا الموضوع ، وإيضاح مثل هذه الأفكار ؛ يأتي بالشر والأذى ؛ لذلك فهم يغلقون الباب ، ويرتابون في كل دراسة له ؛ لأنهم لا يعرفون نتائجه ، لكن السعادة الحقيقية ، والراحة العظيمة في دراسة هذا الموضوع وبحثه ورؤية تطبيقاته ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨/١٠] .

إن المؤمن ليفرح ويسعد بهذا البحث ، أكثر من سعادة

---

(١) أخرجه البيهقي في السُّنن (٢٠٩/٨) ، والحاكم في مستدركه (٣٥٧/٢) .

وفرح الآخرين بالاستهلاك الذي يجعلونه مقياساً للرفاه ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ [سبأ : ٣٤/٣٧] . وقد روي أن مشركاً جاء إلى الرسول ﷺ ، فقال لأصحابه : « اسقوه » ، فحلبوا له سبع شياه حتى شبع ، وفي الليل أسلم ، وفي الصباح قدموا له الفطور فحلبوا له شاة واحدة فشبع ، فقال الرسول ﷺ : « المؤمن يأكل في معىً واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »[١] . فهمُّ الكافر هو أن يستهلك ، بينما المؤمن يأكل ليقيم صلبه ويتحرك بنشاط .. وفي الحديث يقول ﷺ : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم »[٢] .

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي موسى الأشعري في الأشربة ، باب : المؤمن يأكل في معي واحد ، رقم (٢٠٦٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب : ما يحذر من زهرة الدنيا .. (٦٠٦١) ، ومسلم في الرقاق رقم (٢٩٦١) ، والترمذي في صفة القيامة ، رقم (٢٤٦٤) .

سياسة الصدق :

إن سياسة الإسلام سياسة الصدق ؛ فالصدق ذكر كثيراً في القرآن ، والكذب ذُمَّ كثيراً أيضاً . وفي الحديث : أنه قيل لرسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : « نعم » ، فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : « نعم » ، فقيل له أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : « لا »[1] . قد يقع في شهوة المال واللذة ، ولكنه لا يكذب أبداً .

قد يحتج البعض بأن هذا العصر أسوأ من عصر الرسول ﷺ ؛ فقد زاد التفنن في اختراع وسائل التعذيب ، أعتقد أن الذي يتفنن في تعذيبك يفعل ذلك لأنك تريد أن تغتاله ، أما إن كنت تدافع عن رأيك ؛ فلن يصيبك ما يصيب الذي يريد أن يغتال .

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ في الكلام باب : ما جاء في الصدق (٩٩٠/٢) . قال ابن عبد البر : لا أحفظه مسنداً من وجه ثابت وهو حديث حسن مرسل أ.هـ . وفي الواقع أن هذا الحديث روي بمعناه مرفوعاً والموقوف أشبه ، وهو موقوف بحكم المرفوع .

إن العلمانيين والقوميين أفضل من الإسلاميين في موضوع حرية الرأي ؛ لأن الإسلاميين يقتلون الآخر ويتقربون به إلى الله لأجل رأيه ، ويتهمونه بالرِّدة إذا أنكر شيئاً مما يسمى (المعلوم من الدين بالضرورة) ، والقومي والعلماني لا يتدخل في معتقدك وفكرك إلا إذا زاحمته على منصبه وكرسيه .

يظن المؤمن أن قتله للآخر دليل على قوة إيمانه ؛ لكن الحقيقة هي أن هذا ناتج عن ضعف الإيمان ؛ لأن من يشعر بالضعف هو الذي يلجأ إلى العنف ؛ فهو منهزم فكرياً ولا يثق بدينه ومبادئه ، إنه كالذي يظن أن الشمس تدور حوله ، والواقع أنه هو الذي يدور حولها ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصّلت : ٤١/٢٣] ، ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران : ٣/١٥٤] .

إن هذا الخزي وتلك المصائب والمآسي التي نزلت بنا ؛ نتجت عما بأنفسنا ؛ لأننا لم نفهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرّعد : ١٣/١١] .

وإذا قرأنا وفهمنا وتعاملنا مع الأنفس كما نتعامل مع

الحديد ، بواسطة السُّنن والقوانين ؛ فسنسخر الكون كلَّه للإنسان ، وسيتغير الإنسان ليصبح قوياً وفعالاً ، قوياً ومرناً ، لنحصل على أفضل ما عنده من مواقف بأقل الأضرار. والخيالات التي في أذهاننا ليست هي التي تحكم الأشياء : لذلك يجب أن نرجع دائماً إلى التعامل مع الوقائع وإلى التعامل مع أنفسنا .

إن سياسة الصدق تحتاج إلى بيان أكثر ، فنحن بحاجة إليها والعالم بحاجة إليها ؛ لنصل جميعاً إلى الطمأنينة التي ذكرها الله ﴿ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٦/٨٢] ، ولن تتحقق السعادة للإنسان إلا إذا تحقق له الأمن « من أصبح منكم معافىً في جسده ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا »[1] .

---

(١) رواه الترمذي في الزهد باب : رقم (٣٤) رقم الحديث (٢٣٤٧) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب : القناعة رقم (٤١٤١) ، وابن حبان والبخاري في الأدب بسند ضعيف .

الإسلام عندي هو سياسة الصدق ، وكلما صارت السياسة أخلاقاً ؛ كلما اقتربت من الإسلام أكثر ، وكلما ابتعدت عن الأخلاق والصدق ؛ كلما ابتعدت عن الإسلام أكثر .

وإذا كان في الإسلام سياسة ؛ فهي سياسة الأخلاق لاالسياسة العالمية القائمة على المصلحة الآنية .

نظام العمل بمنهج اللاعنف :

ينقسم الناس في مجتمعنا إلى فئتين : فئة موالية للسلطة لاتريد إلا نفسها ، وفئة ثانية تقف ضد السلطة وتواجهها . وإذا أردنا أن نتعامل مع هؤلاء جميعاً بسياسة اللاعنف ؛ فإننا لانقاطعهم ولا نسلم لهم ولا نتبعهم ، بل نمارس مانعتقد أنه الحق سواء أكان صواباً أم خطأً ، ولا نتراجع عنه أبداً .

ومما قلتُه للناس عندما تحدثت إليهم في ندوة تليفزيونية : إن الإسلام لا يجيز الوصول إلى الحكم بالعنف ، وأوضحت أن شرط الجهاد أن يكون المجاهد (الحاكم) قد وصل إلى الحكم برضى الناس ، والفرد إذا لم تعجبه سياسة الدولة ؛ فليس له إلا موقف

الكفاح باللاعنف ، وإذا أردنا تغيير أفكار الناس فلا يجوز أن نستخدم العنف ، لأن العنف يغير أقوالهم ولا يغير أفكارهم .

قد يختلف الفهم من إنسان إلى آخر ؛ لكن النتائج هي التي تحكم في النهاية ليذهب السيء ويأتي الأنفع . والجهاد بشروطه ؛ إن توفرت جاز ، وإلا فلا يجوز . وكما أن لبعض الأحكام - كالرّق - شروطها وظروفها التي فرضت فيها ؛ فكذلك الجهاد يكون حيث توافرت ظروفه وشروطه ، وأنا لا أنفي العنف مطلقاً وإنما أضع له شروطاً وضوابط .

الأمة الراشدة تفرز الخليفة الراشد :

إذا بدأنا العمل بطريقة اللاعنف ؛ فإننا لا نحتاج إلى شيء سابق ، وسنبدأ من الصفر ؛ لنغيّر الناس كما تغير بلال ، ونبني بعد ذلك الدولة كما بناها الرسول ﷺ .

إن الأمة الراشدة أهم من الخلافة الراشدة ؛ لأن الأمة الراشدة هي التي تصنع الخليفة الراشد وليس العكس ، والأمة غير الراشدة تقتل الخليفة الراشد ، كما قتل علي بن أبي طالب ،

ـعاوية استخدم الناس غير الراشدين ضد علي الراشد فقال :
لآتينك بقوم لا يفرقون بين الناقة والجمل » . إن أمة كهذه أمة
ير راشدة - وإن وجد فيها بعض الصالحين - ففي حديث
سيدة زينب أنها قالت لرسول الله ﷺ : أنهلك وفينا
ـصالحون ؟ فقال ﷺ : « نعم إذا كثر الخبث »(١) ، لذلك
ـب علينا أن نعيد الأمة الراشدة ، وبعد ذلك ينتج عنها
ـائياً الخليفة الراشد ، وأعتقد أنه إذا وجدت في العالم
سلامي أمة راشدة فإنها لن تفتح البلاد الإسلامية الأخرى ،
سوف تعطي نفسها لجيرانها ، وتعمل بعد ذلك على تحويلهم
أناس راشدين ، هذه الأمور مترابطة وغير قابلة للانفكاك ،
ذا جاء الحق وزهق الباطل ، نطبق القانون الإسلامي من
ـفر ، إلى أن ننتهي إلى الأمة الراشدة ، عند ذلك سيسقط
لم الآخر المستكبر بما فيه أمريكا أيضاً .

أخرجه البخاري في الأنبياء ، باب قصة يأجوج ومأجوج ، رقم (٣١٦٨) ، ومسلم في الفتن ، باب : اقتراب الفتن ، رقم (٢٨٨٠) ، والترمذي في الفتن ، باب : ما جاء في خروج يأجوج ومأجوج ، رقم (٢١٨٨) .

قوة الشعوب وضعف الجيوش والحكومات :

إن الذين يمارسون العنف ويؤمنون بشروعيته ؛ لا يعرفون كيفية الاستفادة منه ، يقاتلون بالأسلحة المتطورة كما قاتل صدام والخميني ، وهذه الأسلحة لا تفيدهم ، فسرعان ما يدمرها الغرب في مكانها ؛ فإذا بالجيش والقوات المسلحة تهزم وتوقع صك الاستسلام ، ويستسلم الشعب من ورائها ولا يقاوم ، وكان بإمكانه أن يرفض الاستسلام ويقاوم ؛ كما قاوم شعب لبنان حين لم يكن لديه حكومة ولا جيش ، واستطاع أن يطرد أمريكا وفرنسا وإسرائيل بالرغم من صغره وفقره وتمزقه في نظر الآخرين ، استطاع هذا البلد رغم عدم رشده أن يحل جانباً من جوانب المشكلة .

لقد ظهرت قوة الشعوب في لبنان ، فلم يكن لديه حكومة ولا جيش ولا دبابات ولا طائرات ؛ وحقق ما لم تستطع أن تحققه الحكومات والجيوش والأسلحة الحديثة .

إن الثورة الإيرانية أظهرت بوضوح عظمة العالم الإسلامي

وغفلة المسلمين ، لقد تجلت عظمة الإسلام في قدرة الإمام الخميني على أن يهزم الشاه - المدعوم من القوى العظمى - دون أن يستخدم العنف ، ووصل إلى الحكم بتمكن ، ولكن ليس المهم هو أن تصل إلى الحكم ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩/٧] ، لقد وصل الإمام الخميني إلى الحكم ، ولكنه خسر بعد ذلك خسائر فادحة .

عندما يدرس المسلمون شيئاً ما ؛ فإنهم ينظرون إليه : إما على أنه دنس حقير ، أو طاهر مقدس ، فالإمام الخميني عندهم : إما أن يكون مقدساً معصوماً ، ليس كمثله أحد في العالم الإسلامي ، أو أنه رجل غير ذلك ، لكن الموضوعية ليست بهذا الشكل .. إنني أرى في الإمام الخميني رجلاً مخلصاً عظيم الإيمان ، لقد سبق بقية المسلمين ، واستطاع أن يقود شعبه ويغير الحكومة ، ووصل إلى الحكم الذي كان يطمح إليه الأئمة المعصومون جميعاً ، فحقق مالم يستطيعوا تحقيقه ، ولكن مرحلة

بناء الدولة تتطلب فهماً للأمور وفق منطق العصر وعدم التعامل مع الواقع بشكل تقليدي .

إذا كان بلد صغير كلبنان ، وشعب قاتل بعضه بعضاً كشعب لبنان ، استطاع أن يهزم القوى العظمى في العالم ؛ فإن شعباً عظيماً وبلداً كبيراً كالعراق ؛ لا يمكن أن يُهزم أو يُحتل من قبل الأمم المتحدة ، لكن أحداً من الشعب العراقي لم يفكر في إمكانية المقاومة ، وانقسموا إلى قسمين : فقسم يصفق للسلطة ، وقسم يقبل حماية أمريكا ويضع يده في يدها كما يفعل الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب ، ولم يفكر أحدٌ فيما حدث في لبنان والصومال ، ولو حدث مثل هذا لتغيرت أكثر الأشياء في العراق .

إن الأمم المتحدة مثل نازية هتلر ؛ لأن هتلر لو نجح لما كان أسوأ من أمريكا التي تسيطر على العالم . نازية الأمم المتحدة هذه يمكن مقاومتها ؛ كما قاوم الفرنسيون الاحتلال الألماني ؛ عندما استسلم الجنرال (بيتان) لهتلر ووقع صك الاستسلام كما وقع صدام ، والفرنسيون يقدسون تلك المقاومة حتى الآن ،

ويعتبرون الجنرال (بيتـان) إنسـانـاً هزيلاً ، وصـدام استسلم كما استسلم (بيتان) ، وفُتِّش العراق بيتـاً بيتـاً ، ولكن لم يخرج من الشعب العراقي فـدائي واحـد يـؤدب خبراء الأمم المتحـــدة ، ولو حصل هـذا لكانت قلوب جنود صـدام مـع هـذا الفـدائي ، وحتى إن أمسكوا بـه فلن يقتلوه ؛ لأن العـدو الأصلي والحقيقي هو الأمم المتحدة ، وسيتغير موقف الشيعة والأكراد أيضاً .

إن مثـل هـذه المقـاومـة الفـدائيـة هي التي تعيـد للشعب حساسيته ، وستذل الغرب والأمم المتحـدة ، ولن تستطيع الأمم المتحدة أن تبعث شرطة مع الخبراء ، وإذا قام شعب العراق بمثل هذا فلن يخسر شيئاً ؛ لأنه محـاصر ومضغوط عليـه ، ولا يحتـاج الأمر إلا إلى بعض الفـدائيين الحـاذقين ، يـؤدبـون الخبراء أينما وجدوا ، وبعـد ذلـك لن يستطيـع هـؤلاء الخبراء أن ينزلـوا ويتجولوا في شوارع بغداد .

منهج الإسلام في مقاومة التسلط الخارجي :

إن مقاومة الشعوب للسيطرة الخارجية مشروعة وفق مواثيق وقوانين الأمم المتحدة ، فالشعوب لها حق تقرير المصير ، ويحق لها الدفاع عن نفسها حينما تُستعمر ، وأنا أعتقد أن للعراقيين الحق في مقاومة الأمم المتحدة والدفاع عن أنفسهم ؛ لأن صدام لا يمثلهم ، واستسلامه لا يعطيه مشروعية حكمهم .

كل هذا موافق لقوانين ومواثيق الأمم المتحدة ، أما قوانين وشرائع الإسلام ؛ فإننا نأخذها من رسول الله ﷺ ، فهو حين بدأ لم يطالب بجلاء الحبشة عن اليمن ، والروم عن الشام ، والفرس عن العراق ؛ وإنما طلب كلمة واحدة ، « قولوا : لا إله إلا الله ، تملكون بها العرب وتدين لكم العجم »[1] .

أنا أدعو إلى البدء من هذا المنطلق ، فإذا لم نسلك هذا الطريق ؛ طريق الأنبياء الأعمق والإنساني أكثر ، فلنعامل الآخرين بشريعتهم وإن كانت أقل صواباً وإنسانية ، ولنقاوم

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ص ، رقم (٣٢٨٥) .

كما قاومت الأمم الأخرى (فرنسا وغيرها) ، ولنحمِ بلادنا كما حموا بلادهم .

يجب أن نقاوم الأمم المتحدة ؛ كما قاومت الشعوب المحتلين ؛ لأن الأمم المتحدة في حقيقتها لصوص متحدة ، ونازية جديدة تسيطر عليها أمريكا ؛ لتذل العالم وتخضعه لسلطانها . لكن مقاومتنا كمسلمين يجب أن تختلف عن مقاومة غيرنا ، إن حقوق الإنسان ومبادئ الثورة الفرنسية تبيح للشعوب الدفاع عن نفسها ، أما نحن في واقعنا الحالي فلتخلفنا الشديد لم نتبع الطريقة الإسلامية ، ولم نتبع مبادئ حقوق الإنسان ومبادئ الثورة الفرنسية .

التناقض الرئيسي والتناقض الثانوي :

من مصطلحات الماركسية : التناقض الرئيسي والتناقض الثانوي ، وإذا نظرنا في عالم اليوم نجد أن هناك تناقضين : تناقض بين المستكبرين الذين لا يشكلون أكثر من ١١٪ من سكان العالم ، وبين المستضعفين الفقراء الذين يشكلون باقي

سكان الأرض ، هـذا التنـاقض هو التنـاقض الرئيسي . وهنـاك تنـاقض آخر : بين بعض الشعـوب المستضعفـة وبعضهـا الآخر ، هذا التناقض هو التناقض الثانوي .

يجب أن نتجاوز التناقض الثانوي ، وأن نوجه اهتمامنا كله إلى التناقض الرئيسي ، فما يحصل من تناقضـات بين المستضعفين في محور الجنوب ، هو تنـاقض ثـانوي .. تنـاقض مستضعف مع مستضعف ، سواء بين البلاد العربية أو الإسلامية أو المستضعفين عموماً .

إن المشكلة الرئيسيـة هي تخلف العـالم الإسلامي ، هـذا هو التنـاقض الرئيسي ، ومشكلـة فلسطين نتيجـة من نتـائـج هـذا التخلف . إن مابنا ناتج عمـا بـأنفسنـا ، فـالفلسطينيون الـذين قتلوا بأيدٍ فلسطينية ؛ أكثر من الذين قتلوا بأيدٍ إسرائيلية .

إنها مشكلة تخلف أمـة ، فكون الفلسطينيين ابتلوا بـأرضهم ومقدساتهم ؛ لايدل على أن السبب هو فسقهم ، وكذلك لبنان ، لانقول : إنهم فسقوا فـأصيبـوا بحربٍ أهليـة ، هـذا التفسير ليس

دقيقاً ؛ لأن القاعدة القرآنية العامة تقول : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران ٣/١٦٥] . وإذا تجاوزنا مشكلاتنا الرئيسية في العالم الإسلامي ؛ فإن المشكلات الصغيرة سوف تُحل تلقائياً ، وليست إسرائيل إلا حجراً ألقي إلينا ؛ لنشغل به ، أو هي منديل أحمر وضع أمامنا ولا نزال ننطحه ، بينما العدو الحقيقي يطعننا من خلفنا بالرماح .

نبذ العنف بقناعة :

الإنسان الذي لم يخرج العنف من قلبه ؛ لا يمكن أن يكون صريحاً ، ولا يستطيع أن يعرض أفكاره بوضوح . لقد شعرت بأنني قويّ وأستطيع أن أتكلم بوضوح أكثر ، في مختلف القضايا لأنني نبذت العنف ، ولأن كتابي (مذهب ابن آدم الأول) عُرض على التلفزيون ، وعلى الأقل أظهر أنني لست عنيفاً ، وبمجرد أن أثبت أنني غير عنيف تزداد قوتي ، وكلما نبذت العنف أتحرر من القيود والأغلال ، وكلما تمسكت بالعنف تزداد المعاناة والريبة والخوف .

كان النــاس فيما مضى يظنـون ان الشمس تــدور حـولهم ، ونحن نظن أن قـوة العنف تحمينـا ، لكن ظهر أنـه كلما تخلينا عنها نصبح أقوى ، وكلما تمسكنا بها نصبح أضعف .

جـاء في خبر لإذاعـة لنـدن ـ قبل يـومين ـ أن المسلمين في مصر ، أصدروا بيانـاً يتبرؤون فيـه من العنف ، ويعلنون عـدم منـاصرتهم لمن يقوم بـأعمـال العنف . نرجو أن يكونـوا صـادقين وثابتين على موقفهم هـذا . لأن مجرد الإعلان الوقتي لا يـدل على أنهم لا يـؤمنـون بـالعنف ؛ فنبـذ العنف عنـدهم تكتيــك وليس استراتيجيـة ، وقـد تكرر هـذا مِراراً ، فعنـدمـا قتـل الســادات قالوا : نحن قتلناه ولم يتبرؤوا من هذا العمل .

فرق كبير بين أن تنبـذ العنف وتضـع للقتــال شروطــاً ، وأنت مؤمن بمـا تقـول ، وبين أن ترفض العنف لأنـه لا يـوجـد لديك أدوات أو ظروف استخدامه ، ترفضه تكتيكيـاً ، وبمجرد أن تسنح الفرصة ، تتغير المواقف .

لم يقل أحد ـ حتى الآن ـ إن العنف محرم شرعاً ، ولا تزال

كليات الشريعة تعلم بالإيحاء ؛ أن أخذ الحكم بالقوة جائز . أو أن المتخرجين منها يتخرجون وهم يؤمنون بذلك .

نبذ العنف وقبول تحدي قول الحق :

يحتج بعضهم بحديث رسول الله ﷺ : « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان »[(١)] .

إن التعلق بمثل هذا الحديث ، وعلى هذا النحو ؛ يلغي أحاديث أخرى كحديث : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ؛ فالقاتل والمقتول في النار »[(٢)] . وحديث : « كن كابن آدم »[(٣)] .

---

(١) أخرجه مسلم عن عبادة بن الصامت في الإمارة ، باب : وجوب طاعة الأمراء في غير معصية .. رقم (١٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري عن الأحنف بن قيس في الإيمان باب : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (٣١) . وفي كتب وأبواب أخرى ، ومسلم في الفتن ، باب : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، رقم (٢٨٨٨) ، وأبو داود في الفتن ، باب : النهي عن القتال في الفتنة ، رقم (٤٢٦٨) ، والنسائي في تحريم الدم ، باب : تحريم القتل (١٢٥/٧) .

(٣) سبق تخريجه .

والتمسك بمثل حديث : « إلا أن تروا كفراً بواحاً » يفتح الباب لاستمرار الغدر والقتل بين الناس مثل الخوارج الذين رأوا في علي (رضي الله عنه) كفراً بواحاً يبيح دمه ؛ فتكفير المسلم لأنه ينكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة ؛ هذا المقياس للتكفير ؛ مقياسٌ غير محدد و (مطاط) ، واعتماداً عليه يستطيع كل واحدٍ أن يكفر الآخر ويتهمه بأنه أنكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة .

والأعلام التي توحد الله وتكبره هي التي تتقاتل وكل منهم يكفر الآخر . مَن الكافرُ كفراً بواحاً من مشايخ الأفغان ؟ وتحت أية راية يتقاتلون ؟ إن الفكر الديمقراطي قضى على مثل هذه النزاعات ، فتنصيب الحاكم وخلعه يتم على أساس القبول والرفض من قبل الجمهور ومعظم الناس ، وهذا إن لم يكن إجماعاً فهو أقرب للإجماع ، به ينصَّب الحاكم أو يعزل بدون أن يلجأ أحد إلى العنف ، ومن لجأ إلى العنف يدان من قبل الجميع .

يجب أن تذهب إلى الحاكم لتقول كلمة حق أمامه ،

لا لتقتله ، فإن قتلك لأجل كلمة الحق ، فأنت سيد الشهداء . وفي هذا العصر لم يعد أحد يقتل لأجل قوله الحق فقط .

إن مشكلات العالم الإسلامي لا تحل إلا بنبذ العنف ، وقبول تحدي قول الحق ، وإلا فسيبقى القتل سائداً فيما بينهم ، وكل منهم يفسر الكفر البواح كما يريد ، إذ لا توجد أمور قاطعة في الموضوع ، والأفضل تطبيق قول الرسول ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[1] .

قد يخطئ الحاكم ، وقد يتعمد الخطأ ، لكنني دائماً سأسير بالطريقة الفعالة : سأقول الحق وأحرم العنف ، بهذا انتصر الرسول ﷺ ، وبهذا انتصر الإمام الخميني ، وبهذا سأنتصر أيضاً . فلنفتح هذا الباب ، ولنغلق باب العنف الذي فتحه ابن تيمية ، وقتل لأجله .

لم يوافق صراحةً على كتاب (مذهب ابن آدم) من العلماء إلا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، أما الشيخ

(١) أخرجه النسائي في القضاة ، باب : الحكم باتفاق أهل العلم (٨/ ٢٣٠) وقال : هذا الحديث جيد .

ناصر الدين الألباني فقد عدَّه صحيحاً وليس خاطئـاً ، ولكنـه لم يهتم بـه . وقــد نصحني آخر فقــال : يجب ألاّ تَجْهر بــه دفعـة واحدة ، وإنما تعلّم المسلمين مذهب اللاعنف شيئاً فشيئاً ؛ لأننا كما نخاف من الحكام ؛ نخـاف من الشعب ، لـذلـك يجب التـدرج معهم ، ورفع مستواهم ، حتى نصل إلى الأمة الراشدة .

المعرفة والسلطة :

لا زال المسلمون يرفضون الآخر ، بـالرغم من أن الله أعطـاه الحق في أن يعيش ويتكلم ، وزود النـاس بعقول يستطيعون أن يميزوا بهـا الصـواب من الخطـأ . وليس لـه الحـق في أن يـوجـد فحسب ؛ بل يجب عليـه أن يوجـد ، لأن أول من فرض حريـة الرأي هو الرسول ﷺ ، حين قال لعمه : « لن أترك هـذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . فهذا معنـاه : أنـا سوف أقول ما أعتقد ، وأنت أيها الآخر افعل بي مـا تشـاء . والأنبيـاء جميعـاً قـالوا : نحن نقول الحق ونتحمل النتيجـة ، وسيكسب المسلمـون مكاسب عظيمة حينما يبدؤون بتنفيذ قول الحق ، وسينجحون كما نجح الإمام الخميني بدون عنف وسيصلون إلى السلطة .

ولا يكفي الوصول إلى السلطة ، بل ينبغي أن يعرف المسلمون قوانين العالم الحديثة ؛ لأن العالم الإسلامي لم يدخل الحداثة بعد ، ولو أن المسلمين دخلوا الحداثة فعلاً لما اشتروا الأسلحة ، تلك الأسلحة التي تكلف أثماناً باهظة يمكن صرفها لرفع مستوى الثقافة في الأمة ، بدل شراء الأسلحة التي تعيق حركة الفكر والثقافة .

ولعل المأساة الأكبر هي أن أحداً من المثقفين لا يشير إلى هذا الموضوع ، والجميع يظنون أن هذا الأمر استهزاء بقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال : ٨/٦٠] . وقد ذُكر لي أن مالك بن نبي ، رحمه الله ، عندما جاء إلى السودان عام ١٩٦٨ م ألقى محاضرة في جامعة الخرطوم تحدث فيها عن ظاهرة التكديس في العالم الإسلامي ؛ وختم محاضرته بقوله : إن الأسلحة التي تكدست في أيدينا عام ١٩٦٧ أبت أن تطيع غير صانعيها .

شراء الأسلحة كشراء الأصنام :

إنك لن تجد أمة تعدادها مليار وربع ؛ تعيش مسحورة كأمتنا ، تشتري أصناماً كأصنام الجزيرة العربية ، وإن أصنام الجزيرة العربية أطهر وأنظف من هذه الأسلحة ؛ لأن هذه الأسلحة تفقأ العين وتكسر السن ولا تؤذي العدو ، إنها لا تنفع فهي كأصنام قوم إبراهيم التي سألهم عنها قائلاً : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : ٢٦/٧٢-٧٣] .

والكتب التي ألَّفها أجدادنا ، والتي نقدسها ، لا توضح هذه الأمور ، وليس هذا تحقيراً لتاريخنا ، ولكنه امتناع عن الدفاع عن الأخطاء الموجودة فيه .

لقد أُلِّفت كتب كثيرة في تكفير السنة للشيعة ، وفي تكفير الشيعة للسنة ، وهي لا تزال تطبع مراراً على الورق الأبيض ، لتحيا من جديد ، وليتقاتل المسلمون مرة أخرى كما تقاتلوا في الماضي . لذلك يجب تصفية ثقافتنا من شوائبها ، والتخلي عن

عيوبها ، وإذا فعلنا ذلك فهذا لا يعني أننا نحتقر ثقافتنا ؛ بل سيتبين لنا جوهرٌ من ثقافتنا لم يتبين لأحدٍ من الذين سبقونا .

سؤالان حول اللاعنف :

تحدثت في ندوة أقيمت في حمص مؤخراً ، عن موضوع اللاعنف ، وقد حضر هذه الندوة أناسٌ من مختلف الاتجاهات ، العلمانيون واليساريون واليمينيون وأبناء الطوائف والمذاهب ، رجالاً ونساءً ، وكان الجانب الإسلامي أقل حضوراً من غيره ، وقد تقبل الجميع فكرة اللاعنف بقبول حسن .

وفي نهاية الندوة ، سألني أحد الحضور قائلاً : إذا كنت تتبنى مذهب اللاعنف ، فكيف سنحل مشكلة إسرائيل ؟ فقلت له : إن إسرائيل ليست مشكلتنا الأساسية ، فحتى وإن ذهبت إسرائيل ؛ فستبقى مشاكلنا كما هي ، ومشكلة إسرائيل بسيطة أمام مشاكلنا الحقيقية ؛ ففي حرب الخليج نسينا إسرائيل وتقاتلنا مع بعضنا أشد ما يكون القتال . إن لدينا مشاكل أهم من مشكلة إسرائيل ، وهذه المشاكل هي التي أوجدت إسرائيل .

وسألني آخر فقال : إنك تقول : لوأن الخميني قابل صدام بالسلم ؛ لاستطاع أن يأخذ العراق ويضمه إلى إيران ، لوحصل هذا لأخذ الفرس البلاد العربية ، فكيف تقول هذا ؟ قلت له : (نعيماً ياأخي) ، ارجع إلى التاريخ القريب لترى كيف كان بعض من العرب مع الفرس ضد العراق ، وكيف كان آخرون من المسلمين ؛ مع القوميين في العراق ضد الدولة الإسلامية في إيران ، ألا ترى إلى هذه المفارقات ؟

إن أفكاراً كهذه يجب أن توضع في حيّز المفكَّر فيه ، وإذا زاد اطّلاعنا عشرين مرة فستزيد قوة أفكارنا عشرين مرة ، وسنبين الأمور بياناً لا يخطر على بال أحد « إن من البيان لسحراً »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ، باب : إن من البيان لسحراً (٥٤٣٤) ، وأبو داود في الأدب ، باب : ما جاء في التشدق في الكلام ، رقم (٥٠٠٧) ، والترمذي في البر ، باب : ما جاء في أن من البيان سحراً ، رقم (٢٠٩٢٩) ، ومالك في الكلام ، باب : ما يكره من الكلام بغير ذكر الله (٩٨٦/٢) .

الخاتمة :

رأى رجل أمريكي اثنين من أبناء الصين ، يتبادلان الإساءة الكلامية ، فظن أنها سيتضاربان ، بعد قليل ذهب كلٌّ منهما في سبيله ، فأوقفهما الأمريكي وسألهما قائلاً : إني ظننت أنكما ستتضاربان ، فلماذا لم تفعلا ؟ قالا : لأن الذي يبدأ أولاً بالضرب يثبت فشل أفكاره ، وكلانا لا يريد أن يثبت فشلهُ .

إذا استطعنا أن ننبذ العنف بقناعة ؛ فسنتحرر تحرراً عظيماً ، يزيل الخوف والرعب من قلوبنا ، ربما نقتل ويقتل معنا آخرون ، ولكن لن يقتل العدد الذي يقتل الآن بسبب استخدام العنف .

وحتى الآن لم يبحث مقدار القوة التي يمكن للإنسان أن يمتلكها إذا نبذ العنف ، وكم يكون جباناً يدين نفسه ولا يظهر على حقيقته إذا بقي العنف في داخله ؟

إن الذي ينبذ العنف يرتاح كثيراً ، ولا يخشى أن يفهمه

الآخرون ، بـل يخشى ألا يفهمـوه ، لا يخـاف من المخـابرات ولا يهرب منهم ، وإنما يدعوهم ليكونوا مثله .

المهم عنـدي هو ألاَّ نتقـاتـل ، أن نترك العنف ، أن نسمح للنـاس أن يبحثـوا في جميـع القضـايـا ، وأن نتحـاور جميعـاً ولو بشدة ؛ فعنف الكلمة مقبول إلى حـدٍّ مـا ؛ ﴿ فَـأَمَّـا الزَّبَدُ فَيَـذْهَبُ جُفَـاءً ، وَأَمَّـا مَـا يَنْفَـعُ النَّـاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرّعـد : ١٧/١٣] . وإذا اضطررت أن أصمت فسـأصمت كما صمت غاليلو ، وأقسمَ أنه على خطـأ ، ولكن الصحيح سيبقى صحيحاً وسيبقى مسجلاً في التاريخ .

والحمد لله ربِّ العالمين

المجلس الثالث

الرشد شريعة الله والعنف شريعة الطاغوت

الإثنين : ٥ ذو القعدة ١٤١٣ هـ
٢٦ نيسان ١٩٩٣ م

الرشد شريعة الله والعنف شريعة الطاغوت

فهم القرآن على ضوء آيات الآفاق والأنفس ؛ يسهل علينا - كمسلمين - هضم الأفكار الغربية واستيعابها . ولكن قبل أن نبدأ بموضوع اليوم ؛ نلخص أهم ما ورد في المجلس السابق : ذكرنا في المجلس السابق أن نبذ العنف ، وإخراجه من القلب ؛ يطرد الخوف ويمكّن الإنسان من إعلان أفكاره أمام الآخرين ، ويمكن للإنسان إذا أحسّ بالطمأنينة وعدم الخوف ؛ أن ينقل تجربته إلى الناس ، فيحررهم كما تحرر .

وتحدثنا عن كيفية العصيان ، وعن ممارسة الحرية وتحمُّل تبعتها ، وقلنا : إنه لا يمكن للإنسان أن يمارس حرية الرأي

مـا دام يؤمن بـالعنف ، والأنبيـاء جميعـاً مـارسوا الحريـة وقـول الحق ، ومنعوا العنف ، وقلنا : إن الوجه الذي يسجد لله حقّاً ؛ لا يمكن أن يسجد لغيره .

تمهيد :

لم يشترط العَـالَم لجـواز استخـدام العنف إلا شرطين : أن تملك القوة اللازمة ، وأن تشعر أنك على حق . وفي تقـديري أن هذا غير صحيح ؛ لأن هذين الشرطين يبرران شريعـة الغـاب ، فينبغي أن توضع شروط أخرى واضحة وجلية ، ولن تفيدنا أية خطوة نقوم بها قبل وضع هـذه الشروط ؛ لأنهـا ستُبنى على شيء فاسد .

الإيمان بالعنف يضطرنا لممارسة التقية والنفاق :

إذا بحثنـا في مـوضـوع الكـذب والتقيـة ، والمنـافـق ذي الوجهين ؛ فإننا نجد أن الله تعالى أجاز التقيـة في القرآن فقـال : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْـدِ إِيمَـانِـهِ ، إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بِـالإِيمَـانِ .. ﴾ [النّحل : ١٠٦/١٦] ، وإذا أردنـا توضيـح مفهـوم

التقية ، والمسوغات التي يُسمح باستخدامه على أساسها ؛ فإننا نجد أن القرآن أعطى للمؤمن الحرية في أن يعلن أمام أعدائه الكفر بما كان قد آمن به من قبل ؛ إذا تهددت حياته .

صحيح أن القرآن سمح بالتقية ، ولكن فرق كبير بين أن تكون هذه الحالةُ حالة طوارئ ، وبين أن تستمر لتصبح هي الحالة الأساسية والدستورية والواقعية .

ولعل الخطيئة الكبرى التي وقعنا فيها ؛ هي أننا جعلنا من حالة الطوارئ أساساً لعلاقاتنا ، فصار الكذب هو العملة الرائجة التي نتعامل بها في حياتنا كلها ، وأصبحنا نمارس الكذب ولا نعبر بصدق عما في قلوبنا .

وكون القرآن والواقع الاجتماعي والمنطق العلمي ؛ أباح للإنسان أن يقول شيئاً لا يؤمن به ـ عند الاضطرار وفي حالات الطوارئ ـ فهذا لا يجيز لنا أن نبني الحياة على الكذب دائماً .

وما دمنا نؤمن بالعنف ، فسنضطر لاستخدام التقية والنفاق ، وهكذا فلا زال أكثر من مليار مسلم يعيشون هذا

الوضع السيئ ؛ لأنهم أجازوا الكذب والغدر لمجرد امتلاكهم للقوة وشعورهم بأنهم على الحق .

لذلك يجب أن نطارد الأفكار التي تبرر شريعة الغاب ، ونتتبعها إلى أسناخها وحجيراتها الصغيرة ؛ لنصفيها كما يُصفى الهواء في الرئة التي تقوم بعمل مزدوج فتأخذ النافع وتطرح الضار .

وممارسة العنف يجب أن تكون ضمن شروط واضحة تماماً ؛ لأن ممارسته بدون شروط تعدُّ انتحاراً ، ولأن المسلمين لم يضعوا بعد شروطاً للجهاد ؛ إلا الشعور بامتلاك الحق والقوة ، فلا يزال الفساد قابعاً في أعماقهم ، وإذا لم يُخرج هذا الجرثوم الخطير فسيتحرك كلما وَجَد جوّاً مناسباً له ، وسيسبب قتالاً مريراً بين المسلمين كالذي يحدث الآن في أفغانستان .

فلنبدأ بدراسة هذه الأفكار ، وربطها بالقرآن بحيث نبدأ منه ولا نجعله مهجوراً ، فالقرآن موجود في كل مسجد وبيت ومحل ، ويُتلى في الإذاعات ، وفي أشرطة التسجيل

(الكاسيت) ، إنه شيء نفيس جداً ، ويجب أن تنبثق منه كل الأفكار العظيمة ، وقد كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يزوّج بما معه من القرآن ، على أن يعلّمه لزوجته .

فعلينا أن نتدارس القرآن ، وأن نبلغ رسالاته ولا نكتمها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩/٢] .

وما ينبغي أن يكون النزاع بيننا وبين الآخرين ؛ نزاعاً على السلطة ، لأنه عندئذ يكون نزاعاً تافهاً وهابطاً ، بل يجب أن يكون نزاعاً بين من يدافع عن الجهل ويسعى لإبقاء الناس جاهلين ، وبين من يريد نشر العلم والمعرفة . هذه النظافة والبراءة هي التي أمدّت الأنبياء بالقوة والنصر ، وبمجرد أن نفقدها فلن نؤدي دوراً مفيداً في المجتمع .

تأملات في سورة الممتحنة :

يبيّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة الممتحنة بعض

الجوانب التي تحكم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، وقد نزلت آيات من هذه السورة بمناسبة صلح الحديبية الذي عقد في شهر ذي القعدة من سنة ست للهجرة ، ونزلت آيات أخرى بمناسبة فتح مكة ، الذي كان في شهر رمضان من سنة ثمان للهجرة .

سورة الممتحنة من السور المدنية ، وهي من أواخر ما نزل من القرآن ، تتميز بطول آياتها ، وتفصيل الأحكام فيها ، شأنها شأن السور المدنية ، بينما السور المكيّة كانت تركز على ترسيخ الإيمان بالله واليوم الآخر ، والحث على الصدق والعمل الصالح .

صلح الحديبية :

« أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين أنه متوجه إلى مكة معتمراً ، فتبعهُ جمع كثير من المهاجرين والأنصار بلغ عددهم ألفاً وأربع مئة تقريباً . وأحرم ﷺ بالعمرة في الطريق وساق الهدي معه ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظِّماً له .

سار النبي ﷺ ومن معه حتى وصلوا ثنية المرار (وهي طريق تشرف على الحديبية) ، وهناك بركت راحلته

فقال ﷺ : « ما خلأت ، ولكن حبسها حابس الفيل » . ثم قال : والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها . ثم نزل بأقصى الحديبية ، فأرسلَت قريش إليه من يفاوضه على الصُّلح وكان آخرهم سهيل بن عمرو .

جاء سهيل بن عمرو ، فقال : هاتِ اكتب بيننا وبينك كتاباً ، فدعا النبي ﷺ الكاتب ، فقال النبي ﷺ : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ؟ ولكن اكتب : باسمك اللهم ، كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : لا والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي ﷺ : اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول الله ، فقال سهيل : والله لو كنّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال النبي ﷺ : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني ، فأمر علياً أن يمحوها ، فقال عليٌّ : لا والله لا أمحوها ، فقال رسول الله ﷺ : أرني مكانها فمحاها وقال : اكتب :

محمد بن عبد الله . ثم قال له النبي ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به ، فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، قال المسلمون : سبحان الله ! كيف يردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ فقال ﷺ : من ذهب إليهم أبعده الله ومن جاءنا منهم ورددناه ؛ فسيجعل الله له مخرجاً . فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه : أن تردَّه إليَّ ، فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد ، قال : فوالله لا أصالحك على شيء أبداً ، فقال النبي ﷺ : فأجزه لي ، قال : ما أنا بمجيزه لك ، قال أبو جندل : أي معشر المسلمين ، أُردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ - وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله - فقال عمر بن الخطاب : فأتيت نبي الله ﷺ فقلت : ألست نبي الله حقّاً ؟ قال : بلى ،

قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذن ؟ »[1] .

وقد حرص رسول الله ﷺ على التنفيذ الدقيق للمعاهدة حتى قبل أن يوقعها ، فردَّ أبا جندل وغيره ممن جاءه مسلماً ، ولكن لما جاء المؤمنات إليه لم يرجعهن ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ .. ﴾ [الممتحنة : ٦٠/١٠] .

فتح مكة :

وبعد عامين من الصُّلح ، نقضت قريش المعاهدة ، وأعانت بني بكر على الإغارة على بني خزاعة ـ وكان بنو بكر في حلف قريش وبنو خزاعة في حلف المسلمين ـ فهجم بنو بكر على بني خزاعة ، فقدم وفد من بني خزاعة على رسول الله ﷺ :

(١) أخرجه البخاري ضمن حديث طويل في الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب رقم (٢٥٨١) ، وفي كتب وأبواب أخرى . وأبو داود في الجهاد ، باب : في صلح العدو ، رقم (٢٧٦٥ و ٢٧٦٦) . .

يخبرونه بما أصابهم ، فقام وهو يجرُّ رداءه قـائلاً : لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي .

لم يغـدر رسول الله ﷺ بقريش ، ولكن قريشـاً هي التي نقضت العهـد ، ثم نـدمت على مـا بـدر منهـا ، فـأرسلت أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ ليجدد الهدنة ويمددها . وقدم أبو سفيان على رسول الله ﷺ فكلّمه فلم يردَّ عليه شيئاً ، وكلَّم بعض الصحابة فلم يردّوا عليه شيئاً أيضاً ، وجـاء إلى ابنته أم حبيبة ـ وكانت زوجاً لرسول الله ﷺ ـ فأبت أن تجلسه على فراش رسول الله ﷺ ، فعاد وقد أعرض عنه المسلمون .

« وتجهـز رسـول الله ﷺ ، وقـد أخفى أمره ، ولمـا أجمع المسير ، كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يحذِّرهم من غـارة عليهم من المسلمين ، فجـاء الـوحي يخبر الرسـول ﷺ بـالأمر ، فـدعـا رسول الله ﷺ ثلاثـة من المسلمين هم علي بن أبي طـالب والزبير والمقداد ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خـاخ ، فـإن بهـا ظعينـة (امرأة) معهـا كتـاب فخـذوه منهـا ، قـال علي : فـانطلقنـا تعـادي بنـا خيلنـا حتى أتينـا الروضـة ، فـإذا نحن

بالظعينة ، قلنا لها : أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي كتاب . فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ، قال : فأخرجته من عقاصها . فأتينا رسول الله ﷺ ؛ فقال : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل عليَّ ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ، ولا رضىً بالكفر بعد الإسلام ، فقال ﷺ : إنه قد صدقكم . قال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطَّلع على من شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم . فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة : ١/٦٠] »[1] .

(١) أخرجه البخاري في المغازي ، باب : غزوة الفتح ، رقم (٤٠٢٥) وفي أبواب أخرى ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر ...، رقم (٢٤٩٤) ، وأبو داود في الجهاد ، باب : في حكم الجاسوس إذا كان

النهي عن موالاة الأعداء في سورة الممتحنة :

لقد عفا رسول الله ﷺ عن حاطب ، ولم يضيع موقفه في بدر . لذلك يجب أن ندرس نفسية محمد ﷺ ؛ حين عفا هذا العفو ، وحين قال : « معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »[١] .

أما الآيات التي تنهى عن موالاة أعداء الله والمسلمين ، فهي إنما نهت عن موالاتهم لأنهم يخرجون الرسول والمسلمين من ديارهم ، ولا ذنب لهم إلا أنهم مؤمنون بالله وحده .

وفي سورة الحج يبين الله تعالى أن سبب جواز قتال الكفار هو هذا السبب نفسه فيقول : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيْرٌ ، الَّذِيْنَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ﴾ [الحج : ٢٢/٣٩-٤٠] .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي نحوه باب : فضل من شهد بدراً ، رقم (٣٧٦١) .ومسلم في الزكاة ، باب : ذكر الخوارج وصفاتهم ، رقم (١٠٦٣) .

وفي سورة الممتحنة نفسها ، يذكر الله سبحانه وتعالى أن الذين ينهانا عن موادتهم ؛ هم الذين قاتلونا في الدِّين ، وأخرجونا من ديارنا فيقول : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٩/٦٠] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ؛ فإن أعظم ما جاءنا من الحق هو قوله تعالى : ﴿ لَاَإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] ، بينما الكفار الذين ينهانا الله عن موالاتهم يُكرهون الناس في المعتقدات ، ويخرجونهم من ديارهم بسببها .

إن حماية الناس وحماية عقائدهم ؛ هو أعظم ما جاءنا من الحق ، وإذا لم يلجأ الكفار إلى الإكراه في الدين ، والإخراج من الديار ؛ فلا يقاتلون ، بل يُعاملون بالبر والإحسان .

هذان الشرطان ؛ اللذان تحدث عنهما البيان الإلهي بإسهاب ، غابا عن أذهان المسلمين ، فلم يوضحوهما ، ولم يضعوا

جواباً لسؤال : من هو عدو الله وعدونا ؟ فظنوا أن العدو هو الكافر ، لأن بعض الآيات ذكرته ، لكن آية : ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة : ٨/٦٠] ؛ لم تسأل عن دينه وإنما وضعت هذين الشرطين لتحديده ، فالعدو الحقيقي هو الذي يتبنى أحد هذين الأمرين أو كليهما دون تحديد لدينه ، فحتى وإن كان مسلماً نجاهده . هذا ما تبين لي من آيات القرآن ، وهذا ما لم توضحه كتب التفسير والحديث .

ممارسة الجهاد في الإسلام :

إن أمامنا فرصة لننشر العلم بين الناس ، لتكون تهمتنا الوحيدة أننا نؤمن بالله وننشر العلم ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨/٨٥] ، أمامنا فرصة لتعلُّم القرآن وتعليمه ، وتبليغ أفكاره للناس وعدم كتمان شيء مما فيه ، فـ « أشراف أمتي حملة القرآن »[1] ، و « خيركم من تعلم

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٥/١٢) في إسناده سعد بن سعيد الجرجاني وهو ضعيف ، وأخرجه أيضاً الخطيب البغدادي في تاريخه (١٢٤/٤ :

القرآن وعلَّمه »[1] ، و ﴿ الَّذِيْنَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ ، وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إلاَّ الله ﴾ [الأحزاب : ٣٩/٣٣] .

يجب أن نظهر إيماننا لأننا لسنا مجرمين ، ولا قتلة لنخفي أنفسنا ، ونحن كأفراد ضمن دولة ـ إسلامية أو غير إسلامية ـ لا يجوز لنا أن نخرج كما خرج الخوارج أيام علي ؛ لأن رسول الله ﷺ لم يمارس هذا الخروج ضد قريش التي كانت تعبد الأوثان ؛ بل مارس الجهاد لتحقيق ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، بينما فهِمْنا نحن أن الجهاد لإكراه الناس على الدخول في الإسلام .

أما قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التّوبة : ١٢٣/٩] . فالمراد بالكفار هنا هم الذين يخرجون الناس من ديارهم بسبب أفكارهم ﴿ يُخْرِجُونَ

= و ١٨٠/١٨) ، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (١١٩٤/٣ و ٢٥٢١/٧) .

(١) أخرجه البخاري عن عثمان في فضائل القرآن ، باب : خيركم من تعلّم القرآن (٤٧٣٩) ، وأبو داود في الصلاة ، باب : ثواب قراءة القرآن ، رقم (١٤٥٢) ، والترمذي في أبواب ثواب القرآن ، باب : ما جاء في تعليم القرآن ، رقم (٢٩٠٩) .

الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة : ١/٦٠] . هذا هو المراد بعدوّي وعدوّكم .

. وحين يقبل منا الناس أن ننشئ مجتمعاً إسلامياً ؛ فإننا سننشئه لنحمي الناس من أن يعتدي بعضهم على بعض ، فيكون الجهاد لدينا مثل شرطة النجدة ، فإذا اعتدى أحد على أحد ننتصف للمظلوم من الظالم ، وإذا حصل حريق نهرع إلى مكانه لنطفئه ، عند ذلك يكون مجتمعنا مجتمعاً سليماً صحيحاً .

علينا إذن أن ندعو بدون استخدام العنف ؛ إلى أن يؤمن الناس بالإسلام ، إسلام ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ فإن آمنوا واهتدوا نقيم مجتمعاً إسلامياً ، وبعد ذلك نعلن الحرب على الذين يمارسون الإخراج من الديار والإكراه في العقائد والآراء ، فالإنسان في الإسلام لا يؤاخذ من أجل رأيه ومعتقده . ومن لم يترك هذين الأمرين فهو معرض للجهاد من قبل المسلمين الذين بنوا سلطتهم بناءً مشروعاً وعينوا حاكمهم باختيارهم ؛ لينفذ الجهاد المنضبط والمقيد بشروطه .

درء الفتنة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ ﴾ [الأنفال : ٨/٣٩] ، الفتنة هنا ـ كما أرى ـ هي تعذيب الإنسان لأجل رأيه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ٨٥/١٠] ، إذن : قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ؛ أي قاتلوهم حتى لا يكون هناك تعذيب لأي إنسان بسبب رأيه .

عصرنا هذا هو الذي فسّر لنا هذه الآيات ؛ بما أضافه لنا من معلومات ، والمسلمون قديماً لم يكن لديهم القدرة والمعلومات الكافية ؛ لفهم الأمور بهذا الشكل ، وقد بيَّن بعض الصحابة أن قتالهم أيام النبي ﷺ كان لدرء الفتنة بينما قتال المسلمين فيما بعد تحول إلى قتال يفتن الناس ، ففي الحديث « أنّ رجلاً قال لعمر : حدثنا عن القتال في الفتنة وعن قوله تعالى : ﴿ وقاتِلُوهُمْ حتّى لا تكونَ فِتنَةٌ ﴾ قال عمر : وهل تدري

ما الفتنة ؟ ثكلتك أمك ، إنما كان محمد ﷺ يقاتل المشركين ، وكان الدخول في دينهم فتنة ، وليس كقتالكم على الملك »[1] .

وباعتقادي فإن المأساة الكبرى ، التي أصابت المسلمين جميعاً ؛ هي أنهم يئسوا من إعادة الرشد ، فأجازوا تداول الحكم بالقوة ضمناً ، بعد أن أخذه معاوية بالقوة .

ويأسهم هذا شبيه بيأس الكافرين ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة : ١٣/٦٠] .

وإذا كان أجدادنا قد وصلوا إلى هذا اليأس ، فلم يُثقفوا الناس ، ولم يعلموهم كيفية إعادة الرشد ؛ فإننا رأينا في آيات الآفاق والأنفس نماذج حية لأمم تتغير ، ورشد يعود أيضاً ، بينما لا يزال العالم الإسلامي يعيش على الغدر ، من عهد معاوية إلى يومنا هذا ، فالمأمون قتل الأمين ، والعباسيون قتلوا الأمويين ، والسُّنة والشّيعة في صراع مرير ، وكل طائفة تعدُّ العدّة لتغير على الأخرى .

(١) أخرجه البخاري في الفتن ، باب : قول النبي ﷺ : الفتنة من قبل الشرق رقم (٦٦٨٢) ، وفي كتب وأبواب أخرى .

لقد أصبح القتل قاعدة عامة ، وكل من يصل إلى الحكم بالعنف ؛ يقتل أقرب الناس إليه ، ولا يزال العالم كله ـ بشرقه وغربه ـ يبيح هذا الأمر .. بينما الأنبياء جميعاً ، بدؤوا من الصفر ، ومارسوا الحرية والدعوة ، وناظروا أقوامهم بالرأي . والقرآن يذكر لنا نوحاً عليه السلام فيقول : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ ، فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ ﴾ [يونس : ١٠/٧١] . فنوح عليه السلام يقف ويذكر بآيات الله ، وليس له ذنب إلا هذا ، لم يَقْتل ولم يغدُر ، ولم ينافق .

إن معرفة هذه الحقائق الهامة ، الموجودة في القرآن ، وفي الواقع ، وفي تطبيقات الرسول ﷺ تبعث على التفاؤل بإعادة الرشد ، وتلغي اليأس الذي أصابنا كما أصاب الكفار إذ يئسوا من أصحاب القبور .

شريعة الله وشريعة الطاغوت :

لقد أبدع العالم الآخر طريقة : يستطيع أن يغير الحاكم بها ، بدون عنف ، وبدون قتل ، ولكننا لم نستطع بعد أن نتذكر حياتنا الإسلامية الأولى ، ولم نستطع الأخذ بالديمقراطية ، رغم أن الديمقراطية أقرب إلى الرشد من الغدر والقتل الذي نتلبس به .

إن الرشد الذي فقدناه لن يعود : إلا إذا طهّرنا قلوب الناس من الغدر ، وشريعةُ الله لن تأتي إلا إذا قضينا على شريعة الطاغوت : شريعة اللجوء إلى القوة ، شريعة الذي يقول : أنا القوي إذن أنا الحاكم ، أنا ربُّكم الأعلى . لقد ربط الله الكفر بالطاغوت بالإيمان بالله فقال : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] . الطاغوت في الآية : هو العنف والقهر وجعل السيف فوق كل شيء .. وعبارة ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ جاءت مباشرة بعد آية الكرسي ، آية التوحيد الخالص ، فالبغي

والطغيان محرمٌ في شرع الله ، وشرطا الجهاد لم يعودا إسلاميين فقط ، بل صارا مطلبين عالميين ، واختيار الحكام والعقائد حق لجميع الأمم والشعوب ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ .

وقد رأينا بأعيننا كيف سقط الاتحاد السوفييتي ؛ لأنه لم يأخذ بـ ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، وكان يمنع الناس من الاعتقاد بما يريدون . لم يحدث هذا في الأمم الغابرة : عاد وثمود وإرم ، بل حدث في هذا العصر ، وتحت سمع العالم وبصره ، وسيسقط في المستقبل كل الذين لا يقبلون فكرة ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ .

وأعتقد أنه لو وجد من يطبق الجهاد ، وفق الشروط الإسلامية : بأن ينشر العدل وحرية المعتقد ، وحرية اختيار الحاكم ؛ لما وجد غير البلاد الإسلامية ليجاهدها .

قتال الكافر ليس لأجل كفره :

ربما يوجد من يستشكل المفاهيم التي نطرحها ، ويستدل لدحضها بقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ

وَلْيَجِـدُوا فِيكُمْ غِلْظَـةً ﴾ [التّوبـة : ١٢٣/٩] . ولكنني أفهم من مجموع آيـات القرآن أن الكافر الـذي يقـاتل : هـو الـذي يرفض فكرة ﴿ لاَإِكْرَاهَ فِي الـدِّينِ ﴾ ، ويخرج النـاس من ديـارهم . فقتالـه إذن ليس لأجل كفره ، لأن لـه بعـد أن ننتصر عليـه أن يبقى على دينـه ، لـه الحـق في أن يقـول : الله ثـالث ثـلاثـة ، أو هذا ابن الله ، أو ... ، ويبقى محترماً في كنيسته ، وفي معبده إذا كان بوذياً أو مجوسياً أو غير ذلك .

لقد بيَّن القرآن هذه الأمور ، لذلـك علينـا أن نتـدارسـه ، وأن نعقد له المجالس لنفهمه ، ونبلغه للنـاس ونقرأه مرة أخرى ، وكأنـه يتنزل علينـا ، وقـد وصفـه رسـول الله ﷺ بقـولـه : « ألا إنهـا ستكون فتنـة ، قـال الراوي فقلت : فمـا المخرج منهـا يـا رسـول الله ؟ قـال : كتـاب الله ، فيـه نبـأ مـا قبلكم ، وخبر مابعـدكم ، وحكم مـا بينكم ، هو الفصل ليس بـالهزل ، من تركـه من جبّـار قصمـه الله ، ومن ابتغى الهـدى بغيره أضلـه الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم .. من قال بـه صـدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط

مستقيم »[1] . والتـاريخ يثبت صدق هـذا الـوصف ، وسيرجـع الناس إليه رغماً عنهم ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّـاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرَّعــد : ١٧/١٣] ، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَـأَهُ بَعْـدَ حِيْنٍ ﴾ [ص : ٨٨/٣٨] ، و ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَـاتِنَـا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [فصّلت : ٥٣/٤١] .

ومع الأسف فإن المسلمين لم يقرؤوا بعد تاريخ أوربـا ، ولم يــدرسـوا الخطــوات التي أوصلت الأوربيين إلى الــديمقراطيــة وحقـوق الإنسـان ، وكم دفعـوا من الضحـايـا ثمنـاً لهـذه الأمـور الكبيرة .

ولقد يئسنا من إعادة الرشد ، فكأن أحداً ما فتح قلوبنـا ، ووضع فيهـا الغـل والكـذب والعنف ؛ فلم نعـد نستطيـع العيش إلا بــالنفــاق ، وإذا امتنعنــا عن استخــدام العنف فلعجـزنــا

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن ، بـاب : في فضل القرآن ، رقم (٢٩٠٨) وقال : « هذا حديث لانعرفـه إلا من هـذا الوجـه وإسنـاده مجهول ، وفي الحـارث مقـال » ، وأخرجـه الـدارمي (٤٣٥/٢) ، وأحمـد رقم (٧٠٤) ، تحقيق أحمد شاكر وفي إسنادهما أيضاً الحارث الأعور .

وضعفنا ، لا لإيماننا بعدم جوازه ...، لذلك يجب أن نعيد الإيمان بحديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، فسأله أحدهم قال : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه قد أراد قتل صاحبه »[1]، وبالحديث الذي يقول فيه : « كن كابن آدم »[2] .

بناء الثقة سبيل إلى النصر :

يقول الله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى

(١) أخرجه البخاري عن الأحنف في الإيمان باب : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ... » رقم (٣١) . ومسلم في الفتن ، باب إذا توجه المسلمان بسيفيهما ، رقم (٢٨٨٨) ، وأبو داود في الفتن ، باب : النهي عن القتال في الفتنة ، رقم (٤٢٦٨) والنسائي في تحريم الدم ، باب تحريم القتل (١٢٥/٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم ، باب : النهي عن السعي في الفتنة رقم (٤٢٥٦ و ٤٢٥٧) والترمذي في القدر ، باب : ماجاء إنه تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، رقم (٢١٩٤) وقال : (و في الباب عن أبي هريرة وخباب وأبي بكرة وابن مسعود . و.....وهذا حديث حسن) .

الأُخْرَى فَقَـــاتِلُـوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيئَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ﴾ [الحجرات : ٩/٤٩] . إن بغت إحداهما أي : تجاوزت حدّها ، أما إن كان الطرفان باغيين ؛ فما ينبغي أن نكون مع أي طرف .

ففي حرب الخليج وقبل بدء المعارك سألني الصحفيون عن رأيي بما يجري من أحداث ، فقلت لهم : أنتم تسخرون منا ـ نحن العلماء ـ ، طرف يريد أن يوسع ملكه ، وآخر يريد أن يحافظ على ملكه ؛ فما دخل الإسلام في هذا الموضوع ؟ فليترك هذا وراثة الملك ، وليترك هذا الديكتاتورية ، عند ذلك نفكر في الموضوع ، فنكون مع من يترك أولاً .. كيف نقاتل التي تبغي وكلهم بغاة ؟!

ومع الأسف الشديد ، فإن العالم العربي والإسلامي ، بجميع فئاته كان يؤيد صدّاماً ، إن لم يكن بلسانه فبقلبه ، وهذا ليس من الرشد في شيء ، بل هو إعادة للبغي وتوسيع له .

إن إعادة الرشد أخف مؤونة من دعم البغي ومناصرته ، فبإمكاننا أن نربح دون أن نخسر .

ولن نستطيع محاربة عدونا إذا لم يثق بنا إخواننا وجيراننا ، لأن عدونا ينفذ إلينا مستغلاً عدم ثقتهم بنا فيقتلنا بسيوف إخواننا .

وكما قلت أكثر من مرة : لقد كان القرشيون يثقون بمحمد وأصحابه أكثر من ثقتهم بأبنائهم ، ولن نستطيع البوح بالحق ، والتوجه بالنصح إلى الآخرين ، ما لم يثقوا بنا أكثر من ثقتهم بأبنائهم وحرسهم الخاص .

ضياع الأمانة عند المسلمين :

إن مشكلتنا ليست في لندن ولا في واشنطن ، مشكلتنا في قلوبنا ، في أفكارنا ، مشكلتنا مع جارنا ، وقد قال ﷺ : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : مَن يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الأدب ، باب : إثم من لا يأمن جاره بوائقه رقم (٥٦٧٠) ، ومسلم في الإيمان ، باب : بيان تحريم إيذاء الجار ، رقم (٤٦) .

إن الأمة الراشدة هي المطلوبة ، وليس الخليفة الراشد ، لأن أمة ليست راشدة ؛ تضيع الخليفة الراشد ، كما ضيعت أمتنا علي بن أبي طالب .

ولعله إن وجدت أمة راشدة بالمعنى الإسلامي ، أو ديمقراطية بالمعنى الغربي ، فسوف لن تفتح جيرانها ، وإنما ستعطي نفسها لجارتها ، لأنها تؤمن بأن الأمة الراشدة لا يمكن أن يحكمها ديكتاتور .

لقد ضيعنا أثقل شيء في الناموس ، وأعظم شيء نزل : وهو الأمانة التي قال فيها رسول الله ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له »[1] ، و « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة »[2] .

---

(1) أخرجه ابن خزيمة رقم (٢٣٣٥) ، وابن حبان رقم (٤٧) ، وأحمد (١٣٥/٣ و ١٥٤ و ٢١٠ و ٢٥١) ، والطبراني في الكبير (٢٣٠/٨ و ٢٨٠/١٠) وفي الصغير (٦٠/١) ، وابن أبي شيبة (١١/١١) . وأبو نعيم في الحلية (٢٢٠/٣) ، وغيرهم .

(2) أخرجه البخاري في العلم ، باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ...رقم (٥٩) وفي أبواب أخرى ..

يـذكر مـالـك بن نبي عن حكيم صيني أنـه سئـل عن قـوام الْمُلـك فقـال : ثـلاثـة : المـؤونـة والجنـد والثقـة ، فقـال لـه الإمبراطور : إذا كان لا بـد أن نستغني عن أحـد هـذه الثلاثـة ، فعن أيّهـا نستغني ؟ فـأجـابـه : نستغني عن الجنـد ؛ لأن الجنـد لا يعمل بدون مؤونة ، ولا يؤتمن بدون ثقـة . قـال : فـإن كان لا بد أن نستغني عن المؤونة أو الثقة ؛ فعن أيها نستغني ؟ قـال : نستغني عن المؤونة ؛ لأنه بعد الثقة لا يبقى شيء .

ونحن لم يعد عندنا ثقة ولا أمانة ، لـذلـك صرنـا آخر الأمم ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَـالِ ، فَـأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَـا الإِنْسَـانُ إِنَّـهُ كَـانَ ظَلُومـاً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب :٧٢/٣٣] .

وبـالرغم من أن أعـداءنـا ذئـاب ؛ إلا أن علاقتهم فيما بينهم أعـدل من علاقـاتنـا فيما بيننـا ، والقـانون في بـلادهم محترم أكثر مما في بلادنا ، والمأساة أنه لا يوجد من يبحث هذا الموضوع بهـذا العمق : لا الليبراليـون ، ولا القـوميـون ، ولا الإسـلاميـون ...

إلخ ، ومن يقرأ آيات القرآن ؛ يقرؤها للتبرك ، وكأنها لا تتصل بالواقع ..

يجب أن يكون جهادنا في سبيل الله : أي في سبيل الحق ، ولكي نعرف الحق يجب أن نعرف قوانين الله في النفس كما نعرف سننه في المادة ، فكما أن الكهرباء إذا صَعقت إنساناً قتلته ؛ فكذلك قانون الأخلاق : إذا كان جارك لا يثق بك ، ومجتمعك فاسداً ؛ فلن تستطيع العيش ، ولن تكون حياتك سوية ..

من فقَد الأمانة فَقَد إنسانيتهُ :

إننا لم نعظم الأمانة والثقة وعدم الغدر عند عامة الناس ، بل جعلنا الغدارين في مصاف العظماء والمقدسين ، لذلك يجب أن نعلن رفضنا لمن يأخذ الحكم بالغدر والعنف ، وينبغي أن نعود إلى الرشد : إلى شريعة الله ، شريعة الإنسان ، شريعة الثقة ، لأن الإنسان إن فَقَد الأمانة فقَد إنسانيتهُ ، وقد جاء النهي القرآني ﴿ لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الممتحنة : ١/٦٠] . لا تتخذوا الذين غدروا بكم ونقضوا العهد

والميثـاق ، الـذين لا يقبلـون شريعـة الله والإنسـان والعهـد والميثاق ؛ لا تتخذوهم أولياء ..

لقد خسرنا خسائر فادحة ؛ لأننا عشنا زمناً طويلاً ، ولا زلنا نعيش ؛ بدون عهد أو ميثاق ، وقد قال مالك بن نبي يوماً : « إننا لم نتخلص من الاستعمار بمجرد خروجه من أرضنا ؛ لأننا كنا قابلين له قبل أن يستعمرنا » ، وكذلك فإننا إذا تخلصنا من المودة والموالاة لشريعة الغاب ، عندئذ نستطيع أن نعود إلى الرشد ، وأن نحيي دورنا في العالم ، فإذا ظلم إنسان وانتهكت حرمته ؛ فسنشعر بأننا مهددون بالظلم ، وسندافع عنه ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قتل نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ ، أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة : ٥/٣٢] .

المساواة أمام القانون في الإسلام :

يقول الله تعالى : ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾

[الممتحنة : ٦٠/٢] ، قوله تعـالى : ﴿ وَدُّوا لَو تَكْفُرونَ ﴾ أي ودُّوا لـو ترجعـون إلى شريعـة الغـاب : إلى وأد الرأي الآخر ؛ الـذي جعل الله وجوده ضرورياً .

إنـك حينمـا تقـول : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الـدِّينِ ﴾ لا تقـولهـا تصدُّقاً منك على الآخر ، بل تقولها لتحمي نفسـك بهـا : تعطي للآخر الحرية في أن يختار مبدأه ومعتقده ؛ لتكون لـك الحريـة في اختيـار مبـدئـك ومعتقـدك . وإن تـذوقـك لطعم الإيمـان والأمان مرهون بدفاعك عن حق عـدوك وحريتـه ، ولن ينـال هذا الشعور كل من يستـأثر بهـذا الحق لعشيرتـه وأقـاربـه فقـط ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَـا وَمَسَـاكِنُ تَرْضَوْنَهَـا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِـهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِـهِ فَتَرَبَّصُـوا حَتَّى يَـأْتِيَ اللهُ بِـأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْفَـاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩/٢٤] .

والمجتمع مرتبط ارتباطاً عضوياً ، إذا ظُلم أحـد منـه ؛ فـإن الآخرين جميعاً معرضون للخطر ، وفي الحـديث ورد تشبيـه مز

الرسول ﷺ يفيد هذا المعنى فقال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذِ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونجوا جميعاً »[1] ، يجب أن يخضع الجميع للقانون ، وإذا لم يفعلوا فلن تفيدهم أرحامهم وعشائرهم القومية والمذهبية شيئاً وسيهلكون جميعاً ..

منع العنف ونصرة المستضعفين :

من يستخدم العنف نوقفه عند حدّه ، فإن لم نستطع إيقافه إلا بالعنف ؛ نمارس العنف بشروطه ، على أن نعطيه - بعد أن ننتصر عليه - كل الحرية في أن يستخدم لسانه وعقله في إقناع الناس ، ولا نمنعه من رفع صوته بل نمنعه من رفع

---

(١) أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير ، في الشركة ، باب : هل يقرع في القسمة والإسهام فيه ، رقم (٢٣٦١) .

يده والتسلط بها على الناس ، ونعمم هذه الثقافة على العالم حتى لا يبقى أحد لا تبلغه هذه المفاهيم .

لقد أصبح العالم مترابطاً ، فما يحصل في جزء منه يؤثر على باقي الأجزاء ، فتوماس كارليل كان يقول : إذا تخاصمت امرأة مع زوجها في إفريقية الوسطى ؛ فإن ذلك يكون بسبب غلاء الفراء في لندن ، تتخاصم معه لأن الفراء غالٍ وهو لم يذهب إلى الصيد في ذلك اليوم . ويقول مالك بن نبي : إن إنساناً لا يؤدي واجبه في أستراليا ؛ يتسبب بموت إنسان في الجزائر ، حينما لا يجهز الأسترالي الطائرة كما يجب .

وكذلك فإننا إن لم نكن حريصين على نصرة الإنسان المضطهد في أي مكان من العالم فسيصيبنا أثر الاضطهاد ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ [النّساء : ٤/٧٥] ، وقال أيضاً : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ [التّوبة : ٩/٣٨] .

إن ما لدينا من كتب قديمة لا توضح هذه الأمور ، لذلك ينبغي أن نفهم الأفكار الجديدة فهماً جيداً ، وأن نقارنها بما قاله السابقون ؛ لنصل إلى درجة من الجرأة بحيث نقول : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة : ١٣٤/٢] .

إن كل من يلجأ إلى العنف في حلّ المشكلات ؛ يحول القضية لأمريكا ، ولا أدل على ذلك مما حصل في العراق ، إذ حمت أمريكا الأكراد من صدّام ، بينما عشرة ملايين كردي مضطهدون في تركيا ، لا يسمح لهم بالتكلم بلغتهم فضلاً عن كتابتها ، كل ذلك يحصل تحت سمع العالم وبصره .

وبتأثير المفاهيم المغلوطة التي نتمسك بها سنشعل حرباً ضروساً كحرب المشايخ في أفغانستان .

الخاتمة :

يجب أن نفهم القرآن والسُّنة وحياة الرسول ﷺ ، فليس عن عبث ظل رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً وهو يأمر المسلمين كما أمر آل ياسر : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[1] ، لا تدافعوا عن أنفسكم . وأخبر عليه الصلاة والسلام عن فتن المستقبل فقال لنا : « كن كابن آدم »[2] : ابن آدم الذي ذكر قصته في سورة المائدة ـ وهي آخر ما نزل من القرآن ـ والتي يقول فيها : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾ [المائدة : ٥/٣] ، يذكر لنا الله هذه القصة ويبين أن الأخ الفاشل الذي لم يُقبل قربانه ؛ هو الذي قال : لأقتلنّك ، واليوم كل الذين يلجؤون إلى القتل فاشلون من هذا النوع .

وهناك أحاديث لم يشرحها السلف ولم يوضحوها ، وعلى سبيل المثال لم يبينوا كيف ومتى نستخدم السلاح ، ولا كيف

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/٣٨٣) ، وأبو نعيم في الحلية (١/١٤٠) .

(٢) سبق تخريجه .

ومتى نكسره ، وقد قلت مرة لبعض الشباب : ينبغي أن نعرض أسلحتنا في المزاد العلني ؛ لأنها لم تنصرنا ولن تنصرنا ، وقد كتب عليها يوم خرجت من مصنعها أنها لن تنصر الذي يشتريها أبداً ..

ها نحن أولاء نشتريها ، ونضيع أموالنا ونغرق شعوبنا بالجوع والجهل والمرض ، وكان الأولى أن ننفق هذه الأموال على غذائنا وصحتنا وفكرنا : ﴿ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١/٥٢] ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : ٢٦/٧٣] .

والحمد لله رب العالمين

المجلس الرابع

القانون

تأسيسه ـ حمايته ـ الالتزام به

الاثنين : ١٢ ذو القعدة ١٤١٣ هـ

٣ أيار ١٩٩٣ م

القانون

تأسيسه ـ حمايته ـ الالتزام به

مشروعية التقية :

البيان يطرد الشيطان ـ كما يقولون ـ ولكن قد تكون هناك حالات يباح للمرء فيها أن يمارس التقية ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِيْ شَيْءٍ ، إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلى اللهِ الْمَصِيْرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨/٣] .

التقية : هي أن يخفي الإنسان إيمانه واعتقاده ، ويظهر عكسه ؛ خوفاً من القتل . وقد أجاز الله تعالى هذا التصرف ، بدلالة الآية السابقة ، وبدلالة قوله تعالى : ﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيْمَانِ ﴾ [النحل : ١٦/١٠٦] ، وفي الحديث أن عماراً رضي الله عنه جاء يوماً إلى رسول الله ﷺ ؛ وقد عذِّب حتى ذكر رسول الله بسوء وأخبره بما قال ، فقال له عليه الصلاة والسلام : « وإن عادوا فعُد »[1] .

فإذا بلغ الإنسان الجهد ، وخاف أن يموت ؛ فله أن يعلن ردَّته ، كي يتركه الآخرون ، ولكن له أيضاً أن يصبر ويتحمل ، كما تحمل الإمام أحمد بن حنبل ، حينما عُذِّب ليقول بأن القرآن مخلوق ، فصبر ولم يغير رأيه .

وفي القرآن أمثلة على هذا كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ [غافر : ٤٠/٢٨] .

---

(١) أخرجه البيهقي في السُّنن (٨/٢٠٩) والحاكم في مستدركه (٢/٣٥٧) .

حدود التعامل بالتقية :

فالتقية إذن مشروعة في الإسلام ، ولكنها رخصة (حالة طارئة) ، ولا يجوز بحال من الأحوال أن تصبح قاعدة للتعامل ، إلا إذا كنت تعيش في مجتمع يُقتل الناس فيه لأجل معتقداتهم فقط ، وقد حدث هذا فيما سبق من الزمان ، فكان الرجل يقتل بسبب إيمانه فقط ، ففي قصة الساحر والغلام والراهب ، التي وردت في الحديث ما يدل على ذلك ، فقد أوصى الراهب الغلام قائلاً : إن ابتليت فلا تدل عليَّ ، ولكنه دلَّ عليه ، فأُخذ الراهب وقتل ، أما الغلام فقد ضحى بنفسه ليهدي قومه[1] .

وعلى هذا فجواز التقية مرهون بمقدار العذاب والتهديد : الذي يتعرض له المرء إن أظهر إيمانه ، والناس يختلفون في تقديره .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام رقم (٣٠٠٥) ، والترمذي في التفسير ، باب : ومن سورة البروج ، رقم (٣٣٣٧) .

لكن في الناس من يقول : إن هـذا العصر أسوأ من العصور السابقة ، فـالإنســان اخترع آلات ووسـائل للتعـذيب تفوق كل مـا صنـع واستخـدم من قبـل ، كغسيـل الـدمـاغ والصـدمـات الكهربائية و ... إلخ ، وأنا أقول : صحيح أن وسائل التعـذيب قد تنوعت وزادت ؛ إلا أن الأشيـاء التي وجـدت من قبل كانت فظيعـة أيضـاً ، فقـد كان الرجـل - كما يـذكر الحـديث عن رسول الله ﷺ - يمشط بـأمشـاط من حـديـد ، تنزع اللحم عن العظم ، ويوضع المنشار على رأسه فيشق نصفين[1] . وهذا العصر يختلف عن العصور السابقة ، فلم يعُدِ الإنسـان يعـذب من أجل رأيـه فقـط ، ومـا التعـذيب الـذي يصيب المسلمين في السجـون إلا لأنهم ينتمـون إلى تنظيمـات وجمعيـات تـدبر الانقـلابـات والاغتيالات ، وليس لأنهم يقولون الحق ويجهرون بإيمانهم .

وإن من يمتنع من المسلمين عن أعمـال العنف والاغتيـالات بسلوكـه ؛ يؤمن بجـوازهـا فكريـاً ونظريـاً ، وبـذلـك يكـون معرضاً للتهمة بها في كل لحظة .

---

(١) أخرجـه البخـاري في فضـائـل الصحـابـة ، بـاب : مـالقي النبي ﷺ وأصحابه .. رقم (٣٦٣٩) .

قتل الزعماء ليس حلاً لمشكلاتنا :

لا زال الأمر مشتبهاً على المسلمين ، فهم يظنون أنهم إنما يعذبون لأجل إيمانهم ، وينسون أو يتناسون ذنوبهم الأخرى التي تدفع إلى تعذيبهم ، فلم يصل المسلمون إلى النظافة التي كان عليها الأنبياء عندما ذكر الله عن حالهم : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلاَّ أنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨/٨٥] .

فالمسلمون اليوم يفرحون فرحاً عارماً ؛ إذا قتل زعيم من زعمائهم ، وليس ذلك فحسب ، بل إنهم إن تمكنوا من أحدهم فلن يترددوا في قتله لحظة واحدة ، وهو بالمقابل يعذبهم عذاباً شديداً ويبادرهم قبل أن يظفروا به .

ولأن قلوبهم مليئة بالحقد والكراهية للزعماء ؛ لا يستطيعون قول الحق ، وإظهار أنفسهم بوضوح وثبات أمام جميع الناس ، والذي يخاف من الوضوح وقول الحق ؛ هو المجرم الذي يضمر الشر للآخرين ، أما من كان يبلغ الإسلام ، ولا يريد أن يقتل أحداً ، ولا يفرح إذا قتل أحد من زعماء العالم الإسلامي ؛ فلن يعذب كما يعذب المجرمون .

يجب ألا نفرح بقتل أحد من زعماء المسلمين ، فقد خضنا تجارب عديدة منذ ١٤٠٠ عام ، وتبين لنا أن قتل الزعماء أو الانقلاب عليهم ليس طريقاً لحلّ المشكلات وإنهاء الفساد .

لقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالصبر على الأذية فقال لآل ياسر : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[١] . وأمرنا الله بذلك أيضاً فقال : ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ [النّساء : ٧٧/٤] ، وقال : ﴿ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق : ١٩/٩٦] . ولكننا تركنا وصايا الله ورسوله ؛ فظننا أن الإنسان يقتل لأنه يصلي ، فصرنا لجهلنا نمتنع عن الصلاة .

العنف لا يخدم الإسلام :

ينبغي أن نحصّن الناس من المفاهيم الخاطئة في العنف والقتل ، وذلك بتعليمهم آيات القرآن ، فأول سورة نزلت من القرآن هي سورة (العلق) ، افتتحها الله بقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ

---

(١) سبق تخريجه .

رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ٩٦/١] ، واختتمها بقوله : ﴿ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق : ٩٦/١٩] .

لم أكن فيما مضى أؤكد على ضرورة نبذ العنف واتباع مذهب ابن آدم ، ولكن تبين لي أن كثيراً من الناس لا يصبرون على الفتن والمشاكل ، وسرعان ما ينخرطون فيها ؛ متأثرين بالجو العام المشحون بثقافة العنف ، فتابعت هذا الموضوع وتخصصت فيه كي أصل بالإنسان إلى درجة من الوعي يمتنع معها من الوقوع في العنف ، ويشعر أن خدمة الإسلام والوصول إلى مستقبل أفضل ؛ لا تكون بالقيام بمثل هذه الأعمال ، ولا بالاستيلاء على السلطة بالقوة ، فمحمد ﷺ لم يستولِ على الحكم بالقوة ، ولم يستخدم العنف ، وعاش أكثر من نصف مدة دعوته ؛ وهو يمنع نفسه ويمنع أصحابه من استخدام العنف لرد العدوان ، بالرغم من أنهم كانوا يشعرون أنهم على الحق .

فلسفة اللاعنف في قصة ابني آدم :

لم يروِ لنا الله قصة ابني آدم ؛ إلا لأنها تعبّر عن فلسفة

كبيرة ، فابن آدم الذي قال : ﴿ لأَقْتُلَنَّـكَ ﴾ [المائدة : ٢٧/٥] ، ومارس القتل ؛ كان فاشلاً ، إذ لم يُقبل قربانه ، أما الذي قُبل عمله فقال : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ، مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ﴾ [المائدة : ٢٨/٥] .

وإذا عرضنا القضية على المستوى الإنساني ، بصرف النظر عن الأديان والمعتقدات ؛ فإننا نجد أن أحدهما يريد أن يحل المشكلات بالقتل والعنف ، والآخر يتبرأ من العنف والقتل ، وينسحب من طرف واحد ، ويقول لن أحلَّ المشكلات بالعنف ولو أدى ذلك إلى قتلي ، والله سبحانه وتعالى لم يروِ لنا القصة فقط بأن قال : إن أحدهما قتل الآخر ؛بل نقل عن ابن آدم موقفه المعلن الذي يقول فيه : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ﴾ ، لقد أصرَّ على تجنب الدخول في صراع العنف ، بالرغم من أنه كان على الحق ، وأنه كان هو الناجح وأخوه كان الفاشل ، وقال أيضاً : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٩/٥] ، فامتناع أحد المتخاصمين عن

العنف يحمّل الآخر إثم استخدامه ، أما إذا استخدمه الطرفان ؛ فكلاهما آثم مذنب ، قال ﷺ : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار »(1) .

وقد قال الرسول ﷺ لكلٍّ من أبي موسى الأشعري وأبي ذرٍّ الغفاري وسعد بن أبي وقّاص : « كن كابن آدم »(2) ، وفي إحدى روايات هذا الحديث قال : « فاكسروا قسيّكم ، واقطعوا أوتاركم ، واضربوا سيوفكم بالحجارة ، فإن دُخل - يعني على أحد منكم - فليكن كخير ابني آدم » . وفي رواية أخرى قال أبو ذر لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي ؟ قال : « شاركت القوم إذن » ، قال أبو ذر : فما تأمرني ؟ قال : « تلزم بيتك » ، قال أبو ذر : فإن دخل عليّ بيتي ؟ قال : « فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف ، فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه » . هذه الأحاديث التي يتوجه رسول الله ﷺ بها إلى الصحابة ؛ ليست للتاريخ فقط ،

(1) سبق تخريجه .

(2) سبق تخريجه .

بل هي للحاضر والمستقبل أيضاً ، فرسول الله ﷺ يقول لاحبِّ أصحابه إليه : « كن كابن آدم » ، وأكثر من ذلـك فرسول الله لم يسمح بردّ عدوان الكفار على المسلمين ، وكان يقول لسميَّة وياسر وعمار : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[1] .

القانون سمة الإنسانية :

فرض رسـول الله ﷺ القـانـون من طرف واحــد ، فرض القـانون الـذي يُحـدّد الحـلال والحرام والمبـاح والممنـوع ، ولكي لا تكون حياة الناس كحياة الذئاب يجب أن تُؤسَّس على قـانون يحفظ الحقوق ويحدد العلاقات .

لقد خاطب الله آدم بالقانون حينما صار إنسانـاً مؤهلاً لأن يخـاطب بـه ، فقــال لــه : ﴿ وَكُـلاَ مِنْهَــا رَغَــداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة : ٣٥/٢] . خـاطبـه بـالقـانون لأنـه يختلف عن بـاقي المخلوقـات ، فلا يمكن أن تقول للـذئب : لا تـأكل الشــاة ، ولا يمكن أن تقــول للبقرة : لا تقربي هــذه

---

(١) سبق تخريجه .

الشجرة ، لكن الإنسان يقال له : هذا حرام وهذا حلال ، فيفهم .

والقانون ينشأ من اجتماع أي شخصين ، فيَحرم على أحدهما ما يخصُّ الثاني ، ما لم يأذن صاحب الحق والملكية للآخر بما يملك .

والذي يطبّق القانون وينتصف للمظلوم من الظالم ؛ هو السلطان الذي يختارهُ الناس لينفذ القانون والشريعة التي ارتضاها الناس لهم ، والسلطان أو الحاكم يُعيّن القضاة لتنفيذ القوانين .

تأسيس القانون في المجتمع :

حينما بُعث النبي ﷺ كان القوي من قريش يأكل الضعيف ، ولما تداعى القرشيون إلى حلف الفضول ، الذي تعاهدوا فيه على نصرة المظلوم ؛ حضر محمد ﷺ الحلف ، وبعد بعثته قال : « لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت »(١) .

---

(١) انظر فتح الباري (٤/٤٧٣) .

إذن : القـانون سِمَـة الإنسـان ، وبـالقـانـون لا بغيره يمكن مـواجهـة العـدوان وحمـايـة النـاس من أن يعتــدي بعضهم على بعض ، والمجتمع الذي لا قـانون فيـه ؛ هو مجتمع شريعـة الغـاب ، مجتمع شريعة الطاغوت .

وإذا كنا في مجتمع لا يسود فيه القانون ؛ فواجبنـا أن نـدعو إلى إنشاء المجتمع الذي يتحاكم الناس فيه إلى القـانون والشريعـة ، ويَعملـون على حمـايــة العــدل ولا ينتظرون الآخرين ؛ بـل يطبقـونـه من طرف واحــد ، كما فعـل رسـول الله ﷺ ، حين امتنع عن ردّ العدوان ، ودعـا النـاس إلى الإيمـان والاتفـاق على قانون يحكمهم جميعاً ، وعلى تعيين من ينفذ القـانون المتفق عليـه بعد أن يؤمنوا به .

لقد بعث النبي ﷺ إلى الناس بشريعة إلهية ؛ فدعا النـاس إليها ، فآمنت به خديجة ، وآمن علي وأبو بكر وسميّـة ويـاسر ، وبدأ المشركون يكيلون لهم أصنـاف العـذاب ، لا لشيء إلا لأنهم أرادوا إنشاء مجتمع يقوم على سيـادة القـانون والشريعـة ، ومجتمع من هذا النوع لا يبنى ؛ إلا إذا بدأنا بالدفاع عن حقوق الذين يخالفوننا

في الرأي ، فأنا عندما أدافع عن حق الدكتور شحرور في عرض أفكاره ؛ أرى أن ذلك لزام علي لأدافع عن نفسي ، لأنه كما أن للدكتور شحرور آراء لا يقبلها الناس ؛ فكذلك أنا لي أفكار غير مقبولة ، وإذا كنا نمنع كل من لديه أفكار غير مقبولة من التكلم ؛ فأنا لا يحق لي أن أتكلم أيضاً ، وإذا دافعت عن حقهم في الكلام ؛ فإنني أدافع عن حقي في الوقت نفسه .

فالبداية إذن تكون بفرض القانون من طرف واحد ، وبمجرد دعوتنا إلى التزام القانون ؛ فهذا يقتضي منا أن نتخلى عن العنف .

حماية القانون :

تذكر الأساطير اليونانية ، أن فيلسوفاً مرَّ على امرأة تبكي على قبر فقال لها : مَنْ تندبين ؟ فقالت : أندب زوجي الذي أكله السبع ، وقد أكل من قبل أخي ومن قبل أكل أبي ، قال لها : لماذا تعيشين في بلدٍ تفترس السباع فيه الناس ؟ قالت : لأنْ يفترسني السبع أحب إلي من العيش في بلدٍ لا قانون فيه ،

فربما أستطيع حماية نفسي من السبع ، ولكن من يحميني في بلدٍ لا قانون فيه .

وفي الحديث أن علياً كرَّم الله وجهه سئل : « هل عهد إليك رسول الله ﷺ بشيء لم يعهده إلى الناس عامة ؟ قال : لا ، إلا ما في كتابي هذا ، فأخرج كتاباً من قراب سيفه ، من أحدث حدثاً فعلى نفسه ، ومن أحدث أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[1] . أي من خرج على القانون ، أو آوى إليه خارجاً على القانون فعليه لعنة الله .

إذن على الناس أن يتعاونوا ويتآزروا ليحموا القانون ، وأن يقفوا جميعاً ضد من يخرق القانون ، ومن يخرق القانون أو يؤوي الذي يخرق القانون ؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

---

(١) أخرجه أبو داود في الديات ، باب : إيقاد المسلم بالكافر ، رقم (٤٥٣٠) ، والنسائي في القسامة ، باب القود بين الأحرار والمماليك في النفس (١٩/٨) وهو حديث صحيح بشواهده .

والبلد الذي يغيب فيه تطبيق القانون بالعدل : سيهلك هلاكاً مريعاً ، كما دلت على ذلك سنن التاريخ ، وقد أخبر الرسول ﷺ عن ذلك فقال : « إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد »[1] ، لأن الظلم يتناقض مع الفطرة الإنسانية .

وقد سأل النجاشي ملك الحبشة جعفر بن أبي طالب عن النبي ﷺ فقال : « كنا في الجاهلية وكان القوي منا يأكل الضعيف ، ونأكل المحارم ونرتكب الذنوب ، فجاءنا هذا النبي وحرم علينا الكذب والقتل ، وسل هؤلاء ماذا ينقمون منا ؟ هل أكلنا أو سرقنا أموالهم ؟ هل أذنبنا ذنباً بحقهم ؟ هل كنا عبيداً لهم وأبقنا ؟ » .

إذن : الوجود القانوني هام جداً ، ويجب أن نفهمه ، فالمجتمع لا يعيش بدون قانون :

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود ، باب : إقامة الحدود على الشريف والوضيع رقم (٦٤٠٥) ، وفي كتب وأبواب أخرى ، ومسلم في الحدود ، باب قطع يد السارق الشريف وغيره ، رقم (١٦٨٨) ، كما أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي .

وتحري العدل ، والتطبيق على الجميع أمران أساسيان في القانون ، فما ينبغي أن يقام الحد على الضعيف لذنب لا يعاقب عليه القوي إذا ما ارتكبه .

نشر العلم ضمان لسيّادة الحق :

أول ما نقوم به لبناء القانون هو أن نصبر على دعوة الناس إلى الالتزام به ، وحثهم على تحري العدل والمساواة فيه ، وقد نقل عن ابن قيّم الجوزية قوله : « حيثما كان العدل فثم شرع الله » ، ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النّحل : ٩٠/١٦] ، ويقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النّساء : ٥٨/٤] .

والطاغوت هو الذي يفرض رأيه بالقوة ، ولا يعدل بين الناس ، بينما الإسلام وضع الشريعة والقانون والعدل ، ومن يطبق العدل على نفسه وعلى الآخرين فسيكسب قلوب الناس وضمائرهم .

يقول الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُوْنَ ﴾ [الأنبياء : ٢٤/٢١] . فأكثر الناس الذين يرفضون الحق يرفضونه لجهلهم لا لعنادهم . وفي سورة الفاتحة يقول تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ☆ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ١/٦-٧] . فالناس ينقسمون إلى ثلاثة أصناف : الصنف الأول : وهم المنعم عليهم ، أي الذين فهموا الحق والتزموا به ، الصنف الثاني : وهم المغضوب عليهم ، أي الذين فهموا الحق ولم يلتزموا به ، الصنف الثالث : وهم الضّالون ، أي الجاهلون الذين لا يعرفون الحق ويتبعون الباطل خطأ لا عناداً . وواجبنا تجاه الصنف الثالث هو أن ننشر المعرفة ، حتى لا يبقى أحد جاهلاً لا يعلم الحق ، فيصبح الناس جميعاً إما على الصراط المستقيم أو من المغضوب عليهم ، فإذا صار الحق واضحاً ، فإن الأكثرية لن تكون مع الباطل ، وسيصبح أصحاب الباطل هم الأقلية .

ومن نماذج الضالين ؛ القوم الذين تبعوا معاوية ، وقد

وصفهم حينما بَعث إلى علي كرّم الله وجهه قائلاً : « والله لآتينك بقوم لا يفرقون بين الناقة والجمل » . هؤلاء الذين يمشون مع كل ناعق ، لا يمكن أن يكونوا أمة راشدة ، ولا يمكن بالتالي أن يكون حاكمهم راشداً .

العدل والمساواة في الإسلام :

الإسلام يفتح الآمال واسعة بالمستقبل ، ونحن كمسلمين لا نيأس من الفطرة الإنسانية ، فنظرية الإسلام وفلسفته تقول : إن الكون ينمو إلى الأفضل ويزداد ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [فاطر : ١/٣٥] ، ﴿ ويَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النّحل : ٨/١٦] ، فلم ينتهِ خلق الكون بعد ، بل لا يزال يخلق ، ويسير نحو الأفضل والأنفع على العموم ، بالرغم من وجود بعض النقاط على محور الصعود يبدو فيها بعض التأخر وبعض التراجع ، والقانون الذي يحكم الكون هو : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرّعد : ١٧/١٣] . والقانون الذي يحكم المجتمعات أن الذين يستكبرون ويلغون الشريعة ويضعون لأنفسهم الامتيازات ، هم

الأقلية دائماً ، وهذه الأقلية تضطهد الأكثرية وتسلبها الأموال ولا تعدل معها .

والإسلام منذ فجر بعثة محمد ﷺ يرفض الامتيازات ويحاربها ، فقد ورد في الحديث أن رجلاً من زعماء القبائل ؛ جاء إلى النبي ﷺ وهو في أحلك الظروف وأحوج ما يكون إلى من يناصره ، جاءه وقال له : يا محمد أتبع دينك أنا وقبيلتي ، وأنصرك ولكن على أن تجعل لي ولقبيلتي امتيازات ، وجاءه بعضهم فقال له : سأتبعك على أن تجعل الأمر لي من بعدك ، لقد طالب الكثيرون بأن يكون لهم امتيازات ، ولكن رسول الله ﷺ رفض كل هذه العروض ، وتابع دعوته والتزم القانون من طرف واحد .

وكل الذين يلتزمون القانون - ولو من طرف واحد - ويدعون الناس إلى الالتزام به سينصرون حتماً : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٣٠/٤٧] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا .. ﴾ [فصّلت : ٤١/٣٠] ، والقانون الإنساني في

موضوع العدل والرشد واحد ، فأمريكا ومعاوية سواء ، فكما أن معاوية سيطر على الناس برضاهم لجهلهم ، فكذلك أمريكا تسيطر علينا بأيدينا لجهلنا ، على أن إعادة الرشد ، وأخذ الحق من الظالم ـ سواءً أكان دولة أو حاكماً ـ ؛ لا يكون بالقتال ؛ وإنما بإقناع الناس بفساد شريعة الطاغوت ، والعودة إلى شريعة العدل ، الشريعة التي أسسها رسول الله ﷺ .

أعمال الرسول سنن لا خوارق :

لم يصل السَّلف إلى فهم هذه الأمور بالرغم من وضوحها ، فعدّوا عمل الرسول ﷺ معجزة خارقة وليس سنة وقانوناً ، فحماية الله ونصرته لرسوله ؛ لن تكون لغيره ـ وإن سار على طريقه ـ .

لقد ظلَّ المسلمون يحافظون على الصلاة والعبادات الأخرى ، لكن موضوع العدل فُقد من عهد معاوية إلى يومنا هذا ، فقد روي أن هارون الرشيد دعا فقيه زمانه وقال له : قصَّ علي كيف كان رسول الله ؟ فقال : كان يحكم بالعدل بين

الناس ، فسأله عن أبي بكر ، فقال : كان يأخذ المال من حقه ويضعه في حقه ، وسأله عن عمر وعثمان وعلي ، فأجاب بنفس الإجابة ، إلى أن سأله عن معاوية ، فقال : كان يأخذ المال من حقه ويضعه حيث شاء ، فقال هارون الرشيد : سنة معاوية هي التي أعجبتني . ولم يخالف هذه السنة من بعد معاوية إلا عمر بن عبد العزيز الذي ردَّ أموال زوجته التي أخذتها من أبيها ، وكان أبوها قد أخذها من بيت المال .

إن العودة إلى الرشد والعدل ، وحماية القانون غير ممكنة إلا بالطريقة التي استخدمها رسول الله ﷺ ، وهي أن يقبل الداعي بأن يقتل لأجل دعوته ، دون أن يحاول قتل الظالم ، ومن لا يقبل بهذه الطريقة فسيخسر كل ميزات النصر التي وعد الله بها المؤمنين البريئين ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨/٨٥] .

لقد ضيعنا سنة رسول الله ﷺ ، وجعلناها خوارق ومعجزات خاصة به ، ولم يعد المسلمون يقنعون بأن هذا الأسلوب هو الذي سينجح ، أما في هذا العصر ؛ فقد وجدنا أن

العالم الضّال عن شرع الله يتقدم علينا ، ويضع طريقة للوصول إلى الحكم برضى الناس ، ودون سفك للدماء ، فليس في مقدور الحاكم عندهم أن يتسلط على الناس ، وإذا انقضت مدته لا يورّث زعامته لأبنائه .

إنهم يعدلون مع شعوبهم فقط ، أما مع شعوب العالم الأخرى ؛ فهم يتسلطون عليها ، ولكن الديمقراطية التي أبدعوها مع كل علاّتها أقرب إلى الرشد من حالنا التي نحن عليها ، أقرب من معاوية ومن وراثة الملك .

السبق الإسلامي في بناء الرشد :

وما قام به رسول الله ﷺ يعدُّ سبقاً في هذا الموضوع ، ففي عهد بعثته لم يكن العالم يعرف إلا وراثة الملك أو الاستيلاء عليه بالقوة والجبروت ، فلم يكن إلا كسرى وقيصر والنجاشي ... وأمثالهم ، وكلهم ورثوا الملك وراثة ، بينما عصرنا الذي نعيشه ؛ فيه نماذج عديدة قريبة من الرشد ، بحيث أصبح الناس يعينون الحاكم الذي يريدونه ، من غير عنف ، ويتنازل عن الحكم إن رفضوه من غير عنف أيضاً .

ويجب أن نعلم أيضاً أن الحاكم في الإسلام ينصَّب من قبل الناس وليس من قبل الله ، وأبو بكر وعمر نصَّبهم المسلمون ، ولهم أن يعزلوهم ، وإن قلنا إن سنة رسول الله معجزة خارقة ؛ فلا يمكن أن نقول : إن ديمقراطيات الغرب خارقة .

وفي الحديث قال ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ، قلنا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ »[1] . وفي رواية قالوا : الفرس والروم ؟ قال : « ومن الناس إلا هم ؟ » . وقد قال ﷺ في الروم : « إن فيهم لخصالاً أربعاً ، إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة عند مصيبة ، وأوشكهم كرّة بعد فرة ، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف ، وخامسة حسنة جميلة ، وأمنعهم من ظلم الملوك »[2] ، أي أكثرهم

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ، باب : قول النبي ﷺ : « لتتبعنّ سنن من كان قبلكم » رقم (٦٨٨٩) ، ومسلم في العلم ، باب : اتباع سنن اليهود والنصارى ، رقم (٢٦٦٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن ، باب : تقوم الساعة والروم أكثر الناس رقم (٢٨٩٨) .

رفضاً لجور الملك ، فمدح المجتمع الذي يمنع السلطان من الجور .

والإسلام نفَّر وحذَّر من جور السلاطين ، فقد قال النبي ﷺ : « سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله »[(1)] .

منهج التغيير في الإسلام :

لقد نهى الله آدم عن الأكل من الشجرة فقال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩/٧] ، فأكل آدم وزوجه منها ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢/٧] ، ﴿ قَالاَ : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣/٧] .

بعد أن نظرت في الآفاق والأنفس ، وفي أحداث العالم ؛ رجعت إلى القرآن والإسلام ، فوجدتها متماسكين تماسكاً عجيباً

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٠/٢ و ٩٥/٣ و ١٩٥ و ١٩٩) ، والطبراني في معجم الكبير (١٦٥/٣) ، وفي الأوسط أيضاً وغيرهما .

جـداً ، ووجـدت أن طريقـة الإسـلام أفضـل من طريقـة الغربيين ؛ لأنهم لا يـزالـون يجيزون لـلأمـة أن تثـور على حكومـاتهـا ، ويجيزون لهـا أن تقتل زعمـاءهـا ، فـالـديمقراطيـة الغربية تبيح سفك الـدمـاء ، لكن الإسلام لم يجز هـذا ، ومنهج التغيير في الإسلام منهج سلمي ، والبدايـة فيـه تكون من طرف واحد ، وهذا يفوق الديمقراطية الغربية .

لقد جاء الأنبياء جميعاً من عهد نوح إلى عهـد محمـد ﷺ ؛ بقول الحق وإعلان الرأي ، لكن المسلمين أبطلوا الحق باستخـدام العنف لقلب الحكم ، ولم يجتهدوا ولم يدرسوا الحضارات المختلفة .

وإذا كان بـاستطـاعتي أن أجتهـد في بعض الأمـور ، وأن أبدي رأيي ؛ فما ذلك إلا لأنني درست في أعرق جامعة إسلامية ؛ في جـامعـة الأزهر ، وتتلمـذت على يـد الشيـوخ من المرحلـة الابتـدائيـة إلى أن تخرجت من الجـامعـة ، فصـار لـدي اطـلاع لا بأس به على الأفكار الإسلامية ، والآراء المختلفة عند المسلمين ، وقرأت بعد ذلك الحضـارة الغربيـة ، ودرست تسلسل الأحـداث فيها : لقد كان حالهم أسوأ من حالنا قبل ما لا يزيـد على أربعـة

قرون ، وبعد الحروب ترجموا العلوم ، واطّلعوا على الحضارات فحضروا بذلك العالم ، ووصلوا إلى الاجتهاد وفهم الحقائق .

ونحن لا زال اليساري عندنا لا يقرأ السيرة النبوية ولا القرآن والتفاسير ويشمئز منها ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ [الزُّمر : ٤٥/٣٩] ، وكذلك القوميون لا يقرؤون الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ، إنهم يقرؤون جرامشي ولينين وأنجلز ويتعبون تعباً شديداً حتى يفهموا آراءهم ؛ بينما لا يعرفون من تاريخهم شيئاً ، إنهم يتقاتلون ويتظالمون من أجل أمور تافهة لا وزن لها ، أما أنبياؤهم الذين أقاموا العدل : نوح ولوط وموسى وعيسى فهم مضيَّعون ؛ لا يُقرأ تاريخهم ولا تدرس أفكارهم ، إنهم لم يطبقوا قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣/٢] ، بل لم يشهدوا حتى على أنفسهم .

القراءة مفتاح التغيير :

إن أول كلمة نزلت من السماء على محمد ﷺ كلمة

﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق : ١/٩٦] ؛ لأن القراءة تمكن من حضور العالم ومعرفة ما يجري فيه ، فالله يقول : ﴿ اقْرَأْ ﴾ بينما المسلمون يظنون أنهم إن قرؤوا فسوف يضلون ، إنهم لا يثقون بعقولهم ، بينما الله يثق بالإنسان ، فيقول : ﴿ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا ﴾ [النحل : ٣٦/١٦] ، لو علم الله أننا سنضل إذا سرنا أو قرأنا لما قال لنا : ﴿ سِيرُوا ﴾ ولما قال لنا : ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، ولأن المسلمين لم يتبعوا أوامر القرآن ؛ ظل العالم الإسلامي غائباً ، والذين تعلموا وعرفوا التاريخ جيداً ، وقرؤوا الماضي ، ويقرؤون الحاضر ، وسيقرؤون المستقبل ؛ سيخرّجون مجتهدين كباراً في العالم الإسلامي .

ومحمد إقبال عملاق من عمالقة هذا العصر ، فهم الديمقراطية ، وفهم ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦/٢] ، وفهم العلم ، لكن المسلمين لم يفهموا منه إلا أنه يمدح رسول الله ﷺ والحسن والحسين وفاطمة ، وحين يصلون إلى المواضيع الهامة ؛ يمرون عليها مرور الكرام ولا يهتمون بها .

الحرية ونبذ العنف :

إن تطبيـق القـانـون ـ وإن كان جـائراً ـ بـالتســاوي على الجميع ؛ خطوة لا بأس بها ، وبعد ذلك يمكن تطوير العدل شيئاً فشيئاً حسب العصر ، قـال تعـالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النّساء : ٤/٥٨] .

والبداية في تطبيق القـانون تكون بـأن نلتزمـه أولاً ، وألا ننتظر من الآخر أن يطبقه على نفسه ، هذه الفلسفة هي فلسفة الأنبيـاء العظـام ، وهي ليست كفلسفــة المصلحين الأوربيين الذين تزعموا الثورات .

وإذا أردنا إيضاح فلسفة الأنبياء بإيجاز فنقول : إنهم نبـذوا العنف ، وأعلنوا أفكارهم ، ولم يطلبوا من الآخر أن يسمـح لهم ، فلم يلتزمـوا بنهي أقـوامهم لهم ؛ بــل تكلمــوا وعرضــوا أفكارهم وتحملـوا مسـؤوليتهـا ، ولم يـدبروا الانقـلابـات والاغتيـالات ، وكانوا صادقين مع أقوامهم إلى أبعد الحدود .

إذن هناك علاقة بين حرية الرأي وبين العنف ، فـإذا كان

في قلب أحدنا عنف ، فلن يستطيع إعلان رأيه ، وإذا نبذ العنف ؛ فسيملك الحرية دون أن يأخذها من أحد ، وسيقول الحق دون أن يخشى أحداً .

ولن تنعم بلادنا بالحرية طالما بقي أبناء أمتنا يؤمنون بجدوى العنف ومشروعيته .

معنى عبادة الله :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النّحل : ١٦/٣٦] ، إن من أسماء الله : الحق والعدل ، فمعنى ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي اعبدوا الحق واعبدوا العدل ، هذا المعنى أحد معاني الله ، ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى : « يا ابن آدم مرضت فلم تعدني . قال : يا ربِّ ! كيف أعودك ؟ وأنت ربُّ العالمين . قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم : استطعمتك فلم تطعمني . قال : يا ربِّ ! وكيف أطعمك ؟ وأنت ربُّ العالمين . قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته

لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني . قال : يا ربِّ ! كيف أسقيك ؟ وأنت ربُّ العالمين . قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي »[1] .

فحيث تعود المريض ، وتطعم الجائع ، وتنصر المظلوم ، وترفع من قيمة المستضعف ، فهذا هو العدل ، هذا هو الله ، ومعنى لا إله إلا الله أي ليس لأحد أن يتحكم بأحد .

تنصيب الخليفة :

جاء في خطبة أبي بكر رضي الله عنه يوم بويع بالخلافة قوله : « ولِّيتُ عليكم ولستُ بخياركم » ، ولِّيت : فعل مبني للمجهول ، الفاعل محذوف ، فمن الذي ولاَّه ؟ إن الذي ولاَّه هو الذي قال له : امدد يدك أبايعك ، وهو عمر بن الخطاب ومن ورائه المسلمون ، ومن الخطير أن نظن أن الله هو الذي ولاَّه ،

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة في البر والصلة ، باب : فضل عيادة المريض ، رقم (٢٥٦٩) .

وعلينا أن نعيد فهم القرآن من جديد فهناك أشياء كثيرة : مرة يقال إنها من صنع الله ، ومرة يقال إنها من صنع الإنسان ، فيجب أن نفهم العلاقة بين عمل الله وعمل العبد ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرّعد : ١١/١٣] فهناك تغييران : تغيير يقوم به الإنسان وتغيير يقوم به الله ، ولا يتم التغيير من الله حتى يتم التغيير من جانب الإنسان .

فبيعة أبي بكر إذن : بدأها عمر وتبعه المسلمون .

وفي الحديث عن ابن عباس :« أن عمر سمع في مكة في آخر حجة حجها ، رجلاً يقول : لوقد مات عمر لقد بايعت فلاناً فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت ، فغضب عمر ، حتى إذا أتى المدينة قام في الناس خطيباً وكان مما قاله : ثم إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول : والله لوقد مات عمر بايعت فلاناً ، فلا يغترن امرؤ أن يقول : إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت ، ألا وإنها قد كانت كذلك ، ولكن الله وقى شرها ، وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر ، من بايع رجلاً من غير

مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا »[1] .

فمعنى قول عمر هذا ؛ أنه لا يجوز لأحد أن يبايع أحداً إلا بمشورة من المسلمين وترشيح منهم ، ومع الأسف لم يكتب شيء في هذا الموضوع ، ولم يشرح شرحاً كافياً ، وما فعله عمر يوم طُعن من تعيين الستة الذين بقوا من العشرة المبشرين بالجنة ، كان فيه شيء من كيفية الشورى ، وكان منهم عبد الرحمن بن عوف ،فتنازل عن حقه في الترشيح ، وأخذ يستشير الناس رجالاً ونساءً إلى أن جاء إلى علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما ، فسأل علياً : هل تقبل أن أبايعك على أن تسير على كتاب الله وسنّة رسوله ونهج أبي بكر وعمر ؟ فقال : أبايعك على كتاب الله وسنّة رسوله أما أبو بكر وعمر فهم رجال ونحن رجال ، أما عثمان فوافق على السير على نهجهما فبايعه عبد الرحمن وبايعه من ورائه المسلمون .

---

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري (١٤٤/٢ ، ١٤٥) .

لم يقبل عليَ الشرط الذي وضعه عبد الرحمن بن عوف ؛ وهو السير على نهج أبي بكر وعمر ، وكيف يسير على نهجها وقد اختلفا في عدة أمور ، فأبو بكر مثلاً كان يقسم الأعطيات بالتساوي بين الناس و يكل أجرهم يوم القيامة إلى الله ، أما عمر فقال : والله لا أسوّي بين من قاتل رسول الله وبين من قاتل معه ، فجعل للمسلمين الأُوَل أفضلية على غيرهم .

والخلاف في هذا الموضوع لا زال قائماً في العالم الإسلامي ، فبعض الناس يفضلون التفاوت في المكانة والأعطيات المادية ، وبعضهم كالشيوعيين الصينيين من أتباع ماوتسي تونغ كانوا يسوون بين الناس ، فيعاملون الجنرال كما يعاملون الجندي .

وأرى أن نسوّي بين الناس كما فعل أبو بكر ، ونترك إلى الله أن يعطي كلاً منهم بحسب عمله يوم القيامة ، لكن هذا الموضوع قابل للاجتهاد وإلا لما اجتهد فيه عمر ، وعلينا أن نجتهد لنختار الأنفع والأحسن .

إذن فالخليفة يختاره المسلمون ويبايعونه ، وما فعله عمر بن الخطاب من مبايعة أبي بكر كان عملاً وقائياً لدرء الفتنة

قبل وقوعها ، والناس أيضاً كانوا عقلاء إذ لم يرفضوا مبايعة أبي بكر ، وهذا الموضوع يستحق من المسلمين الكثير من الجهد والعناء والتخصص لدراسته ، والاستفادة من تجارب الآخرين وأفكارهم .

الغي بعد الرشد :

لقد أغلق باب الرشد مع أفول نجم الخلفاء الأربعة ، وفتح باب الغي ، فبعد أن كان الحكم للناس ، يبايعون من أرادوا دون عنف ، تحول الناس إلى الغي ، إلى وراثة الملك ، إلى القبلية والعشائرية .

فلما استشار الناس عمر في ابنه عبد الله ليكون خليفة بعده قال : « يكفي أن يحاسب رجل واحد من آل الخطاب » . ولما استشاروا علياً في ابنه الحسن ، قال : هذا إليكم إن شئتم ولَّيتموه وإن شئتم رفضتموه .

فالخليفة يضعه الناس وليس الله ، وأبو بكر قال في خطبة السقيفة : « إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش » . لم

يقل قال الله وقال رسول الله ؛ بل قال : إن الواقع يقول كذا ، والعرف يقول كذا ، ليرد على الأنصار الذين قالوا : منا أمير ومنكم أمير .

كانت العصبية فيما مضى للأسرة والعشيرة ، ولكنها زالت شيئاً فشيئاً من النفوس ، وعلينا أن نبدل هذه العصبية بالعصبية للفكرة وللإيمان وللتاريخ .

الخاتمة :

إنني أجتهد في هذه الأمور مجبراً ؛ لأنني لا أجد من يسد هذا الفراغ من الاختصاصيين ، واجتهادي ليس صحيحاً تماماً ؛ لكنني أطرح أفكاراً أستنبطها من القرآن ومن سيرة الرسول ﷺ ، ومن التاريخ ، ومن آيات الآفاق والأنفس ، فإن قبلها المسلمون فبها ونعمت ، وإن رفضوها فلهم الحق في رفضها ، ومن له رأي آخر فليطرحه ليقارن الناس بين هذا الرأي وذاك ، فيتنورون أكثر بما يسمعون ويدركون جهة

الصواب ، فإذا سمع الناس وجهات نظر مختلفة يتبلور لديهم الموضوع أكثر فأكثر ، فالبيان يطرد الشيطان كما قلنا أول المجلس .

والحمد لله ربّ العالمين

المجلس الخامس

الإسلام ومفهوم التغيير

الإثنين : ١٠ أيار ١٩٩٣ م

١٩ ذو القعدة ١٤١٣ هـ

الإسلام ومفهوم التغيير

التغيير :

لا يُبيح الإسلام الوصول إلى الحكم بالقوة أو الانقلاب ؛ لكنه يفتح الباب للتغيير عن طريق قول الحق ونشر الأفكار ودعوة الناس ، إلى أن يقتنعوا بها ، ليقوموا بعد ذلك باختيار من يرضونه لتطبيقها .

على هذا الطريق سار قدوتنا وأُسوتنا محمد ﷺ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١/٣٣] .

فإن تجرّأ أحدٌ واغتصب الحكم بالقوة ؛ فإننا نواجهه بكلمة

الحق ونقول له : إن ما فعلته غير جائز وغير صحيح ، ونتحمل مسؤولية هذه الكلمة التي ربما نقتل بسببها « سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله »[1] .

لا بأس أن نقتل في سبيل الله وقول الحق ، ودون أن تمتد أيدينا لنؤذي أو نقتل أو نقوم بالعنف ، وهذا الأسلوب في الدعوة أقل خسائر من أسلوب العنف ، ولن يستطيع حاكم أن يقتل قالة الحق كما يقتل الثوار ، قد يَقتل العشرات أو المئات ؛ لكنه لا يستطيع أن يقتل الآلاف من الناس لأنهم يقولون الحق فقط .

وبالمقابل فقد حصد العنف مئات الألوف من المسلمين في حروب لا طائل منها ؛ ففي صفين مثلاً ، يروي ابن كثير في البداية والنهاية ؛ أنه قتل فيها سبعون ألف مسلم ، منهم

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١٢٠/٢ و ٩٥/٣ و ١٩٥ و ١٩٩) والطبراني في المعجم الكبير (١٦٥/٣) وفي الأوسط أيضاً وغيرهما .

عشرة آلاف صحابي ، وفي معركة الحرَّة أبيحت المدينة وقتل الأطفال والنساء .

التغيير وقول الحق :

إن قول الحق واجب في كل الظروف والأحوال ، ولا يحتاج إلى شروط ، وقد ورد في الحديث عن بعض الصحابة : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، في العُسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم »[(١)] .

وفي الحديث أيضاً قال ﷺ : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ؛ إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[(٢)] .

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن ، باب قول النبي ﷺ : « سترون بعدي أموراً تنكرونها » رقم (٦٦٤٧) ومسلم ، في الإمارة ، باب : وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، وتحريمها في المعصية ، رقم (١٧٠٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة ، باب : وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، وتحريمها في المعصية رقم (١٨٣٩) .

وفي رواية عند الإمام أحمد وابن حبان « عليك بالسمع والطاعة وإن ضرب ظهرك وإن أخذ مالك »[1] .

إذن : نقول الحق ، ولا نخرج على الحاكم ولا نقتله ولا نغتاله ولا نفرح باغتياله ، إنّه مخطئ ، ومع ذلك لا أخرج عليه ، وإن ضرب ظهري وإن أخذ مالي ، وأواجهه بكلمة الحق ولا أكفّ عنها .

قول الحق هو أعظم شيء نزل من السماء ، لأنك إن لجأت إلى العنف حميت شريعة الغاب ، أما إن قلت الحق فستحمي شريعة الإنسان من طرف واحد ، وستصل إلى شريعة الحق التي تحترم حرية الإنسان وعقله ، ولا تفرض عليه شيئاً بالقهر والإجبار .

إننا إن اتبعنا سياسة قول الحق لا نخاف من المخابرات ؛ بل نعلن أفكارنا أمامهم ليثقوا بنا ، وليَثِقَ بنا الحاكم أكثر من ثقته

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢١/٥) ، وابن حبان في صحيحه ، رقم (١٥٤٥ زوائد) .

بحرسه الخاص . إننا لن نغدر ولن نقتل ، ولكننا لن نسكت عن قول الحق أيضاً .

أشعر أن عرضي لهذه الأفكار لا يزال قاصراً ، وأن من يأتي بعدي سيتعمق في بحث هذه الأمور ، وسيكون عرضه لها أجمل وأقوى وسيدعمها بالأدلة الأكثر إقناعاً .

إذن : هناك فرق كبير بين أن أخرج على الحاكم لأقتله ، وبين أن أقول الحق وألتزم به ، فإذا تعرضت للتهديد بالقتل لقولي الحق ، فقد أباح لي الله أن أستخدم التقية ، وأن أقول غير الذي أعتقده ، فالله تعالى لم يأمرنا بالإصرار على قول الحق إذا تَعرضتْ حياتنا للخطر ، فقال : ﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمَانِ ﴾ [النحل : ١٦/١٠٦] ، وقال ﷺ لعمار : « وإن عادوا فعُد »[1] .

لقد جاء الأنبياء جميعاً بهذا الأسلوب من عهد نوح إلى

(١) سبق تخريجه .

يومنا هذا ، والفقهاء أيضاً لم يجيزوا الخروج على الحاكم بالرغم من يأسهم من إمكانية إعادة الحق والرشد .

وتحريم الفقهاء للخروج على الحاكم جاء وفق القاعدة التي وردت في كتاب أعلام الموقعين عن ربّ العالمين وهي : « الحرام ما كان ضاراً دائماً أو غالباً ، والواجب ما كان نافعاً دائماً أو غالباً » والخروج والعنف ضارٌ دائماً أو غالباً ، فهو محرم .

إن الذين يمارسون العنف للوصول إلى الحكم مخطئون حتى وإن نجحوا ، لأنهم يسنُّون سنة سيئة ، ومن يخالفهم فسيتعامل معهم بالطريقة نفسها في المستقبل ، وهم سيواجهونه بالطريقة نفسها التي يتعامل بها الحكام اليوم .

إنك إن أبحت لنفسك الخروج عليه ، فأنت تبيح للآخرين الخروج عليك ، أما إن وصلت إلى الحكم بالوضوح والعدل ورضا الناس ؛ عند ذلك تستطيع منع المعارضين الذين يستخدمون العنف ويخرجون على الحاكم .

يجب أن نعامل الناس كما نحب أن يعاملونا ﴿ أَتَأْمُرُونَ

النَّـــاسَ بِـــالبِرِّ وتَنْسَــوْنَ أَنْفُسَكُم وأَنْتُم تَتْلُــونَ الكِتَـــابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤/٢] ، والديمقراطية معناها أن النـاس اتفقــوا على تحريم الــوصــول إلى الحكم بـــالقــوة والعنف ، فهم لا يجيزون لأحدٍ أن يقوم بانقلاب للوصول إلى الحكم ، ويسمحون لأي إنسان أن يقنع الناس بأفكاره ، صحيح أن هناك تلاعبات ودعايات وإنفـاق للأموال ؛ لكن الحـاكم يتغير فيـذهب كما جاء ويعـود إلى بيتـه ، وللـديمقراطيـة الغربيـة مثـالب أخرى ، فهم لا يختــارون العــالم أو الفيلســوف لقيــادتهم ، والنـــاجــح في الانتخابات عندهم هو الذي يتواطأ مع الشركات الكبرى .

الثورة الإيرانية والتغيير :

الانتخابـات إذن لا تكفي ، بل ينبغي تعليم النـاس ووضع الحقائق بين أيديهم ليختاروا دون ضغط مادي أو معنوي ، فالثورة الإيرانية ، تلك الثورة العظيمة التي لم يحدث مثلها منذ عهد الخلفـاء الراشــدين إلى يــومنـــا هـــذا ، والتي أوصلت الإمــــام الخميني إلى السلطـــة بطريقـــة تفـوق في شرعيتهـــا الانتخــابـــات والـديمقراطيـة ، وبغير عنف ؛ تلـك الثـورة لم يغن عنهـا أنهـا

وصلت إلى الحكم بطريـق شرعي ، لأن القيـادة والتغيير نحـو الأفضل يحتـاج إلى معلومـات وإلى حضـور في العـالم : ﴿ عَسَى رَبُّكُم أَنْ يُهْلِـكَ عَـدُوَّكُم وَيَسْتَخْلِفَكُم فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩/٧] .

فإن العقليـة الأسطوريـة الخوارقيـة للكثير من المسلمين ، سمحت بحرب إسلامية إسلامية ، استمرت ثماني سنوات ، لم يتبين لأحد من الطرفين فيهـا ، أن مصيرهـا قـد أصبح بيـد أمريكا ، لأن الطرفين يتقـاتـلان بسـلاح أجنبي ، وقـد رفض الطرفـان وسـاطـة الـدول الإسـلاميـة ، ثم في النهـايـة ، قبـلا حكم غير المسلمين ، وأذعنا ، مكرهين ، لقرار الأمم المتحدة .

إن أمورنا هذه مرتبطة ارتبـاطـاً وثيقـاً بـالقرآن وبـآيـات الآفـاق والأنفس ؛ لـذلـك علينـا أن نعلّم القرآن للنـاس تعليمـاً يربطه بآيات الآفاق والأنفس حتى لا يبقى أحد يجهله .

قتال المرتدين أيام أبي بكر :

لم يقاتل أبو بكر الصّديق رضي الله عنه المرتـدين لمجرد أنهم

كفروا بالإسلام ؛ بل قاتلهم لأنهم أعلنوا الحرب على المسلمين وحاصروا المدينة ، وسعوا إلى القضاء على دولة الإسلام ، ولم يبق إلا ثلاثة مساجد تقام فيها الصلاة ، وادَّعى النبوة كثيرون كسيلمة وسجاح ، فهبَّ المسلمون بقيادة أبي بكر لحماية الإسلام والدفاع عن الدولة الإسلامية .

ولو أن هؤلاء خرجوا من الإسلام ، ولم يحاولوا القضاء عليه بالقوة ، لما قاتلهم أبو بكر ولطبَّق فيهم قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ وكل من يظن أن أبا بكر إنما قاتل المرتدين لردّتهم فقط فهو مخطئ .

خاض الصحابة المعارك تحت راية أبي بكر ، وقتل منهم جمع غفير كما في معركة حديقة الموت ، وكما في الحروب مع مسيلمة ، وعلى إثر هذه الحروب اضطر المسلمون إلى جمع القرآن ؛ لأن كثيراً من الحفّاظ قتلوا في تلك الحروب .

وقد تحدث الدكتور البوطي في هذا الموضوع فقال : المرتد لا يقتل لردَّته بل يقتل حرابة . وفي الحديث عن

رسـول الله ﷺ قـال : « لا يحـلّ دم امرئ مسلم يشهـد أن لا إلـه إلا الله وأني رسـول الله إلا بـإحـدى ثـلاث : النفس بالنفس ، والثيب الـزاني ، والمفارق لدينه التارك للجماعة »[1] .

ومن يقبل حرية الفكر فليس بيننا وبينه أية عداوة ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُم أَنْ تَبَرُّوهُم وتُقْسِطُوا إِلَيْهِم إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨/٦٠] ، ولا زال بعضنا يقتل بعضاً آخر بتهمة الرِّدّة ، وعلي بن أبي طالب قُتل بهذه التهمة ، والذي قتلهُ إنما فعل ذلك بنيّة التّقرّب إلى الله .

تغيير الولاء :

يقول الله تعالى : ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُم أَرْحَامُكُم وَلا أَوْلادُكُم يَوْمَ القِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُم واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة : ٣/٦٠] .

---

(١) أخرجه البخاري في الديات ، باب : قوله تعالى : ﴿ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ والعَيْنَ بِالعَيْنِ ﴾ ، رقم (٦٤٨٤) ومسلم في القسامة ، باب : ما يباح به دم المسلم ، رقم (١٦٧٦) وغيرهما .

لقد طالب الإسلام بصلة الرحم على أساس العلاقة الإنسانية ، لكنه نهى عن مساندة الظلم حتى وإن كان مصدره الأرحام ، قال ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قالوا : يا رسول الله ، هذا ننصره مظلوماً ، فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : « تأخذ على يده »[1] أي تمنعه من الظلم .

فنصرة الأخ الظالم في الإسلام تختلف عن نصرته في الجاهلية ، وصلة الرحم التي هي من الأشياء المقدسة يجب أن تقف عند حدّ ، وفي القرآن آياتٌ توضّح حدود هذه العلاقة : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَداءَ للهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُم أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ ، إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا .. ﴾ [النّساء : ١٣٥/٤] .

فلا يجوز في الإسلام التعصب للأرحام ، والأرحام قد تصل إلى درجة القومية وقد تكون في مستوى العشائرية التي مرَّ بها الناس حين بدؤوا بالرعي واستئناس الحيوانات ، وهي أقرب

(١) أخرجه البخاري في المظالم ، باب : أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً ، رقم (٢٣١٢) والترمذي في الفتن ، باب رقم (٦٨) ، رقم الحديث (٢٢٥٦) .

مـا تكـون إلى البــداوة ، وقــد تكـون في مستـوى الـوطنيــة ، والتاريخ يبين لنا كيف بدأت الأرحام وكيف مرَّ الناس بمرحلةٍ كانوا فيها لا يسألون أخاهم في النـائبـات على مـا قـال برهـانـاً ، وكيف نشأت الوطنية حين استوطن الناس الأرض بعـد أن كانوا يرحلون فيهـا من مكان إلى آخر ؛ بحثـاً عن الرزق ، وحين كان الأعداء يغيرون عليهم ليـأخـذوا أموالهم وأراضيهم ، فتبلور معنى الأرض والوطن والقرية .

ثم نشأت علاقة جديدة تربط الإنسان بـأخيـه ؛ أسـاسهـا العقيدة والإيمان ، وقد ذكر الله مثل هذه الروابط فقال : ﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنُوا والَّـذِينَ هَـادُوا والصَّـابِئِينَ والنَّصَـارَى مَنْ آمَنَ بِـاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَـالِحـاً فَلَهُم أَجْرُهُم عِنْـدَ رَبِّهِم وَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُم يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٦٢/٢] .

معنى التعرف على الله :

جعل الله لنا أسوة حسنـة في إبراهيم والـذين معـه فقـال : ﴿ قَدْ كَانَت لَكُم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبْراهِيمَ وَالَّـذِينَ مَعَـهُ ، إذْ قَـالُوا

لِقَوْمِهِم إنّا بُرَءاؤُ مِنْكُم وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُم وبَدا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَداوَةُ والبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ .. ﴾ [الممتحنة : ٦٠/٤] .

يقصُّ علينا الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام والذين كانوا معه وعلاقتهم مع قومهم وأرحامهم ، ويؤكد لنا من خلال هذه القصة ، أن الولاء عندهم كان ولاء العقيدة ، ولاء الإيمان بالله وحدهُ ، وإذا أردنا فهم الولاء للإيمان بالله وحده فعلينا أن نفهم معنى الإيمان بالله وحده :

إن الإيمان بالله وحده لا يعني شيئاً إذا لم نتعرف على قوانين الله وسننه في الكون ، فالله سبحانه وتعالى هو مبدع الكون ، ومعرفتنا به تتحصل بمعرفة مخلوقاته ، فمعرفة الخالق تكون عن طريق معرفة خلقه .

وذكر الله أيضاً لا معنى له إذا لم يرتبط بمعرفة الكون وتسخيره ، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أُخبركم بخير أعمالكم ،.وأرفعها في درجاتكم ، وأزكاها عند مليككم ، وخير

لكم من إعطاء الـذهب والورق (الفضـة) ؛ وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى ، قال : ذكر الله تعالى »[1] .

ولكن كيف يكون قولنا : (سبحان الله) و (الحمد لله) و (لا إله إلا الله) ؛ أفضل من إنفاق المال والجهاد ؟

إن بعض الصوفية يذكرون الله بالاسم المفرد (الله ، الله ، الله ...) أما السلف فكانوا يتقيدون بأحاديث الرسول ﷺ التي تعلم الذّكر بطريقة (سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا إله إلا الله ،..) ، ولكي تكون هذه الأذكار ذات معنى أو مغزى ينبغي أن تترافق مع حالة شعورية تسيطر على الإنسان حين يكتشف شيئاً عجيباً من نظام الكون وأسراره ؛

(١) أخرجه مالك في الموطأ موقوفاً على أبي الدرداء في القرآن ، باب : ما جاء في ذكر الله تعالى (٢١١/١) ، والترمذي مرفوعاً في الدعوات ، باب رقم (٦) رقم الحديث (٣٣٧٤) ، وابن ماجه في الأدب ، باب : فضل الذكر ، رقم (٣٧٩٠) ، وأحمد في مسنده (٢٣٩/٥ و ٤٤/٦ ، ٤٤٧) وغيرهم والحديث صحيح .

فيقول : سبحان الله ، ويكون حينئذ من الذين قال عنهم ربّ العزّة : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِم ، ويَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّماوَاتِ والأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١/٣] .

إذن : كلمة سبحان الله تعبر عن حالة معينة ، وإذا قلت هذه الكلمة دون أن تعيش هذه الحالة ؛ فلن يكون لها عندك معنىً .

وكذلك فالإنسان الذي يرى الكون مسخراً له يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذي سَخَّرَ لَنَا هَذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزُّخرف : ١٣/٤٣] ، والإنسان الذي يعرف قانون تسخير الكون يقول للشيء : كن فيكون ، ويرسل المراكب الفضائية المصنوعة من المعادن إلى الفضاء الخارجي ، لتستكشف المجرات ، وتأتي بالعينات من الكواكب ، وتقيم الاتصالات بين دول الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا في السَّماوَاتِ ومَا في الأَرْضِ جَمِيعاً مِنهُ ، إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣/٤٥] هذا الإنسان الذي عرف قانون التسخير يلهج لسانه بعبارات :

(الحمـــــد لله) ، و (الله أكبر) ، و (لا إلـــــه إلا الله) و (سبحـان الله) ، إن الـذي خلق هـذا الكون البـديع هو الله الذي لا إله إلا هو تبارك وتنزه وتعالى .

وإذا كنا لا نعرف الله بسننه وصفاته ؛ فإننا نكون كالـذين قـال الله عنهم : ﴿ يَظُنُّـونَ بِـاللهِ غَيْرَ الْحَـقِّ ظَنَّ الْجَـاهِلِيَّـةِ ﴾ [آل عمران : ٣/١٥٤] ونكــون كمن يظن أن الله يخلــق الأشيــــاء بطريقة عفوية ؛ دون سنن أو نظام ، لذلك فالـذين لا يعرفون سنن الله والسلطــة التي منحهـا الإنســـان في هـــذا الكــون ؛ لا يعرفون الله .

فعلى قدر علمنا بقوانين الله وسننـه يكون ظننـا حقيقيـاً ، ولهـــذا أمرنـــا الله أن ننظر في هـــذا الكـون وأن نسير في الأرض لنعرف مـاذا في السماوات والأرض ، ولنعرف تـاريـخ الإنســـان وعاقبة الأمور .

العصبية العقائدية :

إن أسماء الله تسعة وتسعون اسماً ، وقـد ورد في الأثر أن من أحصاها دخل الجنة ، إن أسماء الله أحوال وليست ألفاظاً فقط ،

وكلما كان الإنسان ذا علمٍ كلما تمثَّلت فيه هـذه الأحوال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨/٣٥] .

لقد كان لنا في إبراهيم والـذين معـه أسوة حسنـة في إنشـاء المجتمـع المترابـط ترابطـاً عقـائـديـاً ، وليس ترابطـاً قبليـاً أو عشائرياً . ترابطاً يقوم على أسـاس الانتصـار للقـانون الإلهي في الكون والمجتمع .

لقد تبرأ إبراهيم والذين معـه من عبـادة الأوثـان ، ونبـذوا قومهم حتى يعودوا إلى الاعتراف بالله وبسننه وقوانينه في الآفـاق والأنفس ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ .

يجب ربط الآيات القرآنية مع بعضها لنفهمهـا فهماً متكاملاً كليّاً ؛ حتى لا نكون كالـذين قـال الله عنهم : ﴿ الَّـذِينَ جَعَلُـوا القُرآنَ عِضِينَ ﴾ [الحجر : ٩١/١٥] أي أقساماً متفرقة .

نظام العلاقات في المجتمع الإسلامي :

ينقسم الناس بحسب القرآن إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : هم الـذين آمنـوا بـالله واليـوم الآخر وبفكرة ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ .

القسم الثـاني : وهم الـذين آمنـوا بفكرة ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ فقط .

القسم الثـالث : هم الـذين لم يقبلـوا بفكرة ﴿ لا إِكْرَاهَ في الدِّينِ ﴾ .

ومعنى ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ أي حتى تقبلوا بنظام الله ، فإن لم تقبلوا بـه فلا أقل من أن تتركـوا النـاس يـدينـون بالدين الذي يريدون .

والإيمان بـالله وبقوانينـه وبشرائعـه وسننـه يتضمن الإيمـان بـالكتـاب ، وممـا في الكتـاب قـولـه تعـالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ في الدِّينِ ﴾ ، فلا يحق لأحد أن يجبر أحداً على تغيير معتقده .

والـذين يقبلون فكرة ﴿ لا إِكْرَاهَ في الـدِّينِ ﴾ ، لا حرج علينا أن نبرهم ونقسط إليهم قـال تعـالى : ﴿ لا يَنْهَـاكُمُ اللهُ عَنِ الَّـذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُـوكُم في الـدِّينِ ولَمْ يُخْرِجُـوكُم مِنْ دِيَـارِكُم أَنْ تَبَرُّوهُم وتُقْسِطُـوا إِلَيْهِم إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة : ٦٠/٨] .

إن الذين يقبلون فكرة ﴿ لا إكْرَاهَ في الدِّينِ ﴾ أمة واحدة وإن اختلفت أديانهم ومعتقداتهم ، والشيء الجديد والهام الذي أتى به الإسلام هو أنه سمح للأديان المختلفة أن تعيش معه في توادّ وتراحم « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » ، والإسلام لا يسمح لنفسه أن يفرض معتقداته بالقوة ، ولا يسمح للآخرين أن يفرضوا معتقداتهم بالقوة أيضاً .

التعدّدية في ظل الإسلام :

إن الذي قال : ﴿ لا إكْراهَ في الدِّينِ ﴾ هو الذي قال : ﴿ اللهُ لا إِلَـهَ إلاَّ هُوَ ﴾ [البقرة : ٢/٢٥٥] ، والناس بإمكانهم أن يتعايشوا بالبر والقسط والعدل في ظل هذا المفهوم الإسلامي .

إننا نعيش مع الكافر بالله ؛ فلا نعاديه ولا نقتله ولا نحاربه أيضاً ، ولكننا نحارب ونبغض ونعادي كل من لا يؤمن بلا إكراه في الدين .

ولا بد للناس أن يقبلوا وجود أديان وأفكار ونظريات مختلفة ، وإلا فسيَقْتل بعضهم بعضاً ، وإبراهيم عليه السلام لم

يعلن الجهاد ضد قومه ولم يقاتلهم ، ولكنهم أوقدوا النار وألقوه فيها لأنه آمن بالله وحده وكفر بأصنامهم ، وقوم إبراهيم هؤلاء لم يكونوا يقبلون تعدد الأديان ، وإنما كان كل قوي يفرض دينه ومذهبه على من هو دونه .

إذن : في الإسلام يحق للإنسان أن يدين بما شاء على أن يترك للناس حرية الاختيار أيضاً .

وبحسب معرفة الإنسان لله تكون عبادته له ، وقد ذكر أبو الحسن البصري في كتابه (أدب الدنيا والدين) أن رجلاً أراد أن يشكر الله على نعمة أنعمها عليه فقال : يا ربّ لو كان لك حمار لرعيته مع حماري ، فمقدار معرفته لله هو هذا المقدار ، وشكره جاء على قدر معرفته .

تطور المفاهيم الإيمانية :

في بداية التاريخ ظن الناس أن الله حجر أو شجر أو إنسان ؛ فعبدوا الحجر والشجر وعبدوا بعضهم ، وعبدوا الشمس والقمر والنار ، لكنهم وصلوا إلى أن هذا الذي خلق

الكون لا يمكن أن يكون شجراً ولا حجراً ، فهو ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾ [الشُورى : ١١/٤٢] و ﴿ لَمْ يَكُنْ لَـهُ كُفُـواً أَحَـد ﴾ [الإخلاص : ٤/١١٢] ، فزال تأليه البشر من الزعماء والعظماء وتأليه المجتمعات وتأليه الطبيعة ، ووصلوا إلى الإيمان بالله وحده .

إذن : ﴿ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ أي حتى يقبلوا فكرة ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، وفي السورة نفسها التي يقول فيها : ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ يقول : ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم فِي الدِّين وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِنْ دِيَارِكُم أَنْ تَبَرُّوهُم وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِم إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨/٦٠] ، ولم يكتف الله بهذه الآية بل أكّد في الآية التي بعدها هذا المعنى فقال : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِن دِيَارِكُم وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُم أَنْ تَوَلَّوْهُم ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُم فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٩/٦٠] ، فالذي لا يجوز لنا أن نتولاه أو أن نبرّه هو الذي يقتل الناس من أجل دينهم وعقائدهم ويخرجهم من

ديارهم ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَـالُوا لِقَوْمِهِم إِنَّـا بُرَءاءُ مِنْكُم ومِمَّـا تَعْبُـدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنـا بِكُم وبَـدا بَيْنَنـا وبَيْنَكُمُ العَـداوَةُ والبَغْضَـاءُ أبَـداً حَتَّى تُـؤْمِنُـوا بِـاللهِ وَحْـدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤/٦٠] .

إننـا كمسلمين نعيش مـع المسيحيين والمجـوس وغيرهم الـذين يقبلون ﴿ لا إِكْرَاهَ في الدِّينِ ﴾ ونعـاملهم بـالبر الـذي أوصى الله الابن أن يعامل به أباه ، ونعدل معهم ونحسن إليهم .

هدف الجهاد في الإسلام :

قد يعترض معترض على هذه المعـاني ويحتج بقولـه تعـالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِـاللهِ وَلا بِـاليَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَـا حَرَّمَ اللهُ ورَسُولُـهُ وَلا يَـدِينُونَ دِينَ الْحَـقِّ مِنَ الَّـذِينَ أُوتُـوا الكِتَـابَ حَتَّى يُعْطُـوا الْجِـزْيَـةَ عَنْ يَـدٍ وهُم صَـاغِرُونَ ﴾ [التّوبة : ٣٠/٩] .

قد يعترض ويحتج بهذه الآيـة ، ولكنني أقول : معنى الآيـة لا يتعارض مع الآيات الأخرى والمقصود هنا بـالـذين لا يؤمنون

ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يـدينون دين الحق المقصود هم الذين يمارسون الإكراه في الدّين والإخراج من الديـار ، وكل من يرتكب هذين الأمرين يُقاتَل حتى ولو كان مسلماً .

والجهـاد في الإسلام ليس لإجبـار النـاس على الـدخـول في الإسلام ؛ بل لنشر مبدأ ﴿ لا إِكْرَاهَ في الـدِّينِ ﴾ ولضمان حريـة الاعتقاد لجميع الناس .

على هذه الطريقة سار الأنبياء جميعاً ﴿ وَلَقَد بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّـاغُوتَ ﴾ [النّحل : ١٦/٣٦] الطـاغوت هنـا هو الـذي يفرض رأيـه بـالقـوة ويظلم النـاس ، واعبدوا الله : أي اعبدوا العدل ، اعبدوا الحق ، فمن أسمائه تعالى العـدل والحـق ﴿إِنَّ اللهَ يَـأْمُرُ بِـالعَـدْلِ والإِحْسَـانِ ﴾ [النّحـل : ١٦/٩٠] ، ﴿ وإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّـاسِ أَنْ تَحْكُمُـوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [النّساء : ٤/٥٨] .

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أُمرت أن أقـاتـل النـاس حتى يشهـدوا : أن لا إلـه إلا الله وأن محمـداً

رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله »[1] .

لكنه لم يُذكر عن المسلمين أنهم في يوم من الأيام كانوا يقولون لغيرهم كالمسيحيين مثلاً : إما أن تقولوا : لا إله إلا الله أو نقتلكم ، فالمراد إذن ليس ظاهر الحديث بل المراد أن نقاتل الناس حتى يقبلوا فكرة لا إكراه في الدّين .

لقد بدأ الناس في هذا العصر يقولون بحرية العقيدة ، ولم تكن هذه المقولة تردد من قبل ، بل كان الاختلاف في الرأي أو العقيدة يوجب القتل ، وقد قتل كثير من الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس لاختلاف آرائهم ومبادئهم عن آراء ومبادئ أقوامهم ، ففي سورة ﴿ يس ﴾ قصّ الله علينا قصة ذاك الرجل المؤمن فقال : ﴿ وجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ، باب : فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم رقم (٢٥) ، ومسلم في الإيمان ، باب : الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، رقم (٢٢) .

يَـا قَـوْمِ اتَّبِعُـوا الْمُرْسَلِينَ ، اتَّبِعُـوا مَنْ لا يَسْـأَلُكُم أَجْراً وهُم مُهْتَدُونَ ، ومَالِيَ لا أَعْبُدُ الَّـذي فَطَرَني وإِلَيـهِ تُرْجَعُونَ ، أَأَتَّخِـذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُم شَيْئاً وَلا يُنْقِـذُونِ ، إِنِّي إِذاً لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ ، إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُم فَاسْمَعُونِ ﴾ [يس : ٣٦/٢٠ـ٢٥] .

لما قال هذا القول قتلوه ، والقرآن لم يقل قتلوه ؛ بل قال : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، قالَ يالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمونَ ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس : ٣٦/٢٦ـ٢٧] .

والنبي ﷺ عُذّب أيضاً ، وعُذّب معه أصحابه ، وتحدث عن عذاب الأقوام السابقة لأجل معتقداتهم فقال : « لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد .. ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة ، باب : ما لقي النبي ﷺ وأصحابه ... رقم (٣٦٣٩) .

إن استحضارنا لكل آيات القرآن هو الذي يجعل فهمنا لقول إبراهيم والذين معه فهماً صحيحاً .

دور الكنيسة في ظهور الإلحاد :

لم يكن الكفر بالله بمعنى الإلحاد موجوداً فيما سبق ؛ فالمسلمون والمسيحيون وغيرهم كانوا يؤمنون بالله ، وفي هذا العصر ظهر إنكار الله وإنكار الدين ، وشاع هذا عند كثير من الأوربيين ؛ كردّ فعل على التاريخ الأسود الذي عاشته أوربا أيام حكم الكنيسة ومحاكم التفتيش ، أيام الإيمان الذي باسمه كان يحرق الإنسان ويقتل المفكر ، لقد كفروا بهذا الدّين ، وكفروا بالله الذي كان يستخدمه رجال الدين ليعذبوا الناس ويقتلوهم باسمه ، لكنهم لم يكفروا بالله العدل لم يكفروا بالله السلام .

إن الفيلسوف الإنكليزي (برتراند راسل) كان يخاف من الإيمان كما يخاف العجائز عندنا من الكفر ، وسبب الخوف عند راسل وعند العجائز هو التجارب التي مرّت على كل منهما ، ففي أوربا كان الإيمان يقتل الآخر المخالف في الرأي ، بينما العجائز يخافون من الكفر الذي يبيح حرماتهم ويستحل دماءهم .

خصوصية التعامل مع عرب الجزيرة العربية :

إن العرب في شبه جزيرتهم كانوا أيام رسول الله ﷺ ؛ لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذِمَّة ، وكانوا يغدرون بالمسلمين ويخونون العهود ، وقد بعث رسول الله ﷺ إلى بعض قبائل نجد سبعين صحابياً ليعلموهم ، فغدروا بهم وقتلوهم وسلبوا أموالهم ، أمثال هؤلاء أمر الله المؤمنين أن يقتلوهم فقال : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُم غِلْظَةً ﴾ [التوبة : ٩/١٢٣] ، وقال أيضاً : ﴿ فَخُذُوهُم واقْتُلُوهُم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم ﴾ [النساء : ٤/٩١] ، وقال أيضاً : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُم ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُم في كُلِّ مَرَّةٍ وهُم لا يَتَّقُونَ ، فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُم في الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّن خَلْفَهُم لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال : ٨/٥٦-٥٧] ، وقال فيهم : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لاَ يَجِدُوا في أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّموا تَسْلِيماً ﴾ [النساء : ٤/٦٥] .

فالأعراب الذين كانوا يعيشون في شبه الجزيرة العربية ويقطعون الطرق ويفسدون في الأرض أمر الله المسلمين بقتالهم

وإخضاعهم لسلطة الدولة وللقانون الإسلامي ، ولم يأمر بقتالهم حتى يدخلوا في الإسلام . وقد فتحت في أيام عمر بلاد الشام ومصر وبيت المقدس ، فلم يمنع غير المسلمين من العيش في البلاد الإسلامية ؛ بل أعطى الأمان للنصارى وسمح لهم بإعلان شعائرهم وإظهار صلبانهم وأجراسهم .

خطر الجهل :

لقد بينت آيات الآفاق والأنفس أن فكرة ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ فكرة عالمية بالرغم من أن المسلمين نبذوها وراء ظهورهم ولم يشرحوها ولم يفهموها حق الفهم لأنهم لم يربطوها بآيات الآفاق والأنفس ، وفهم آيات الله مرتبط بمعرفة آيات الآفاق والأنفس : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [فصّلت : ٤١/٥٣] .

إن آيات الله في الكتاب هي التي نقرؤها بين دفتي المصحف ، وآياته في الآفاق هي قوانين التسخير المادي ؛ كتسخير البخار وتسخير البترول والفحم ، وكالتقنية الحديثة في الصناعة والزراعة والفضاء ؛ كل هذه من آيات الآفاق ، أما

آيات الأنفس فهي العلوم التي تهتم بالإنسان وبكيفية التعامل معه وتزكية نفسه ليصل إلى العدل والقسط ولا إكراه في الدين .

إن معرفة حال أولئك الأعراب مرتبطة بمعرفة آيات الأنفس التي تبين أن الإنسان الجاهل خطر على كل شيء ؛ خطر على نفسه وخطر على المجتمع ، لذلك يجب تثقيف الناس وتعليمهم ، ولن يفيدنا شيئاً دخولهم في الإسلام طالما كانوا جاهلين .

ومثال التصرف الذي يقود إليه الجهل ما قامت به قبائل نجد في حادثة بئر معونة ، لقد قتلت قبائل رعل وذكوان وبني لحيان وعصية سبعين من خيار الصحابة غدراً ، وكانوا قد طلبوهم ليعلّموهم الإسلام ، هذه القبائل دخلت في الإسلام حين بدأ ينتشر ويقوى ، وأظهروا الخضوع له ؛ لكن الإيمان لم يكن قد دخل في قلوبهم وأذهانهم ، لم يكن قد دخل الإيمان بالله العدل السلام الرّحمن الرّحيم ، وقريش أيضاً كانت تطلب من محمد أن يطرد العبيد كبلال ؛ ليدخلوا هم في الإسلام ، فعندما

خضع هؤلاء للإسلام خضعوا له وهم يحملون مفاهيم الجاهلية ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعْرابُ آمَنّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا ولكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانَ في قُلُوبِكُم ﴾ [الحجرات : ١٤/٤٩] .

لم يخضع هؤلاء لمبادئ الإسلام ؛ بل خضعوا لقوة الإسلام ، واليوم أيضاً يوجد الكثير من المسلمين الذين ينساقون وراء القوة ، ووراء التقليد و ﴿ أَكْثَرهُم لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٤/٢١] ، فيجب تعليم هؤلاء وتثقيفهم « خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه »(١) ، وينبغي أن نرفع مستوى الناس ، لا أن نفعل كما فعل الذين حوّلوا الخلافة إلى ملك عضود بأن نفتح البلاد فنضم أناساً جاهلين ، يساندون الغيّ ويضيعون الرُّشد ، كما ضيّعوا الخلافة الرّاشدة .

نشر العلم :

يجب ألا نكتم ما آتانا الله من علم ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ في الكِتَابِ ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ ويَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩/٢] .

(١) سبق تخريجه

وعلينـا أن نتعلم وأن نعرف التـاريـخ وسنن الله في الـذين خلـوا من قبـل لننفـذ أمره تعـالى : ﴿ لِتَكُـونُـوا شُهَـداءَ عَلى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣/٢] ، وإذا أردنـا أن نكون شهـداء فعلينـا أن نحضر العـالم ، وألا نخبئ أنفسنـا كما يفعـل المسلمـون اليـوم ؛ فلا هم يحضرون ولا هم يقرؤون التـاريخ ، إنَّهم لا يعرفون مـاذا حصل في الغرب قبل أربعة قرون ، وكيف كانت تشيـد المحـارق وتنصب المشـانـق وتقطـع الرؤوس وتخلـع المفـاصـل وتكسر العظـام ، وكيف بعـد ذلـك حُضروا فتحضَّروا وأعلنـوا حقـوق الإنسـان فيما بينهم ، وكيف لا يزالون يظلمون الشعوب الأخرى ويتعاملون معها كما يتعاملون مع الحيوانـات ، إنهم لا يعلمون كل هذه الأمور ، لذلـك لا يمكنهم أن يكونوا شهـداء ، ولا يمكن أن يكونوا الحكم العدل بين الناس .

بـالعـدل قـامت السماوات والأرض ، والـذين لا يعـدلـون سيسقطـون ، وإذا وصلنـا إلى السلطـة فلن نكـون أفضـل من غيرنا ؛ إلا إذا كنّا شهداء في العـالم ، نعلم أكثر ممـا يعلم الآخرون ونعـدل أكثر ممـا يعـدلـون : ﴿ عَسَى رَبُّكُم أَنْ يُهْلِـكَ عَـدُوَّكُم

وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُـونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩/٧] .

إننا نقول كما قال إبراهيم : ﴿ رَبَّنَـا لا تَجْعَلْنَـا فِتْنَـةً لِلَّـذِينَ كَفَرُوا واغْفِرْ لَنـــا ، رَبَّنـــا إنَّـــكَ أنتَ العَـزِيــزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة : ٥/٦٠] لأننا في الواقع فتنـة لهم نمنعهم من الـدخول إلى الإسلام لتخلفنا وجهلنا ولتصرفاتنا السيئة .

والحمد لله ربّ العالمين

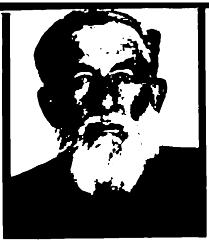

Bi'r 'Ajam Seminars

CHANGE CONCEPT

Mafhūm al Taghyīr

by

Jawdat Sa'īd

مجالس بئر عجم والتغيير:

تعد مجالس بئر عجم تجسيداً لفكرة تعميم الوعي والثقافة والعلم، وممارسة للانفتاح والتواصل مع الناس من خلال المسجد.

بدأت هذه المجالس في منزل جودت سعيد في قريته الوادعة (بئر عجم)، وكان الناس يتوافدون إليه مساء كل يوم اثنين، ليقرؤوا فيه بعض الكتب الفكرية، ثم انتقلت هذه المجالس إلى مسجد القرية ليقرأوا فيه كتابه (اقرأ وربك الأكرم).

والمجالس التي نقدمها اليوم هي المجالس التي أخذ فيها الأستاذ جودت سعيد يشرح للناس آيات من القرآن الكريم.

لم يكن جودت سعيد يحتكر الكلام لنفسه؛ بل كان كثيراً ما يشجع الجميع على التفكير والمشاركة، في جو أخوي إيماني.

ولم تكن الأفكار المطروحة سطحية أو وعظية؛ بل كانت عميقة تعالج الأمور والأحداث المطروحة على الساحة العالمية، بأسلوب مبسط.

وقامت أسرة التحرير في الدار بنقل هذه المجالس المحكية إلى صفحات مكتوبة مع تنسيقها، وتبويبها، ووضع عناوينها، وتخريج نصوصها، لتقدم إلى القراء أقرب ما تكون إلى صيغتها الأولى، أملاً في أن تكون خطوة على طريق التغيير نحو الأفضل.

ISBN 1-57547-197-3

9 781575 471976